من المظاهر الاجتماعية فى فخر شعراء الجاهلية

د. عمر عبد المعبود عبد الرحمن
الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بأسيوط

تمهيـــــد :

وسم المجتمع الجاهلي ووصف أهله ــ كثيراً ــ بالسفه والحمق والبطش وعدم التريث فى الأمور ، والتهور والغضب حتى قيل إن الحروب كانت تقوم بينهم لأوهى سبب ، وأدنى حدث ، هذا الحكم هل يصدق على جميع العرب فى ذلك العصر ؟ وهل خلا المجتمع الجاهلي من المظاهر الاجتماعية الحسنة ، ومن القيم والمثل العليا ؟ ألم توجد بين أهله وشائج اجتماعية وقيم خلقية تعارفوا عليها وأصبحت لهم دستوراً .

الواقع يؤكد ويثبت أن العرب فى جاهليتهم لم يتصفوا جميعاً بتلك الصفات المذمومة فقـــد كان من بينهم أناس اشتهروا بالذكاء والفطنة ، وبالفكر الثاقب ، والعقل الراجح ، والحكمة والاتزان وبعد النظر حتى إنهم احتلوا مكانة مرموقة فى قبائلهم وعشائرهم ، يؤخذ بـــرأيهم فى معضلات الأمور ، كما يقومون بفض المنازعات بين القبائل الأخرى ، ويحكمون فيما شجر بينهم كالأقرع بن حابس التميمي ، وعبد المطلب بن هاشم وغيرهما ، ناهيك عن المحكمين الأدباء الذين كانوا يتولون التحكيم فى الأسواق والمنتديات الأدبية .

ولم يكن الأمر مقصوراً على الرجال فحسب بل كان من بين النساء حكيمات عرفن بسداد الرأي ورجاحة العقل وبعد النظر كحزام بنت السريان وأميمة بنت الحارث الشيباني .

كمـــا يثـــبت الواقع ويؤكد أن العرب مع أنهم فى جاهليتهم كانوا بدواً رحلاً لا يخضعون لنظام ولا يربطهم قانون إلا أنهم كانوا يجتمعون حول القبيلة بما لها من نظم معروفة وعادات مألوفـــة .

وقـــد عبر الشعراء على اختلاف انتماءاتهم القبلية فى شعرهم الفخري عن مظاهر اجتماعية سادت بين العرب فى جاهليتهم ، أقل ما فيها أنها كرست دستور العرب الأخلاقي فى ديباجة صافية المنبع سخية البذل ، حملها الشعراء عبر التاريخ وفاخروا بها ، مظهرين من خلالها السجايا الطيبة ، والعادات الحسنة التى سادت مجتمعاتهم ونبعت من واقعهم المعاش .

ومن خلال رصدنا لتلك القيم الخلقية نلمح الواقع الاجتماعي العربي ونتعرف عليه منذ بدء تلك الحياة فى أوليتها ومدى تلمسها للواقع الحضاري المتكامل إلى أن كان لها الإسهام الفعلي فى التماسك الحضاري الكامل ، وذلك بعد أن جاء الإسلام وأزاح عنهم براثن الجهل وأخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى .

والفخر يعد من أخص صفات العرب ، ومن أوسع الأبواب فى شعرهم ، ولا غرو فى ذلك فطبيعة حياتهم تطلبته ، وحروبهم الكثيرة اقتضته ، إما فخراً بمآثر القبيلة ودفاعاً عن أحسابها وأنسابها ، أو هجاء لخصومها وثلباً لأعدائها ، أو تحميساً لأبناء القبيلة ليهبوا للدفاع عن كيانها والمحافظة على مجدها وشرفها ، أو رثاء للقتلى من أبنائها فى حومة القتال وميادين النضال .

والفخر : تمدح المرء بكرم الخلال وطيب الشمائل ، ومباهاته بنفسه أو قبيلته ، يقول ابن رشيق :

" الافتخار هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار ". (١)

ومقومات الفخر فى الجاهلية كانت (شرف الأصل وكثرة العدد والشجاعة وما يتفرع منها ، ويزيد الفخر بالنفس على الفخر بالقبيلة " السيادة " وذلك أن يكون المفتخر بقومه قد أصبح سيداً فى قومه ، وفى سن باكرة على الأخص ، وكان البدوي خاصة يفتخر بالنجدة وبشرب الخمر وإسقائها) . (٢)

والواقع أن الفخر بكرم العنصر شئ يرثه المرء لا حيلة له فيه ، إذ إنه لم يسع له ولم يتعمل ، بخلاف أفعاله التى تعكس خلقه وتنبئ عن نفسه ، فهذه يأتيها الإنسان اختياراً حسب ما رضى وانتهج ، وهذا ما يؤكده قول قس بن ساعدة :

" من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه " . (٣)

وقول ابن عبد ربه : " إن أولى الأمور بالإنسان فعال نفسه ، فإن كان كريماً وآباؤه لئام لم يضره ذلك ، وإن كان لئيما وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك " . (٤)

---

(١) العمدة ٢ / ١٤٣ .
(٢) تاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ١ / ٨٣ .
(٣) العقد الفريد . ابن عبد ربه ٢ / ٢٩١ .
(٤) العقد الفريد . ٢ / ٢٩٠ .

وها هو ذا عامر بن الطفيل [٥] يقول :

وإني وإن كنت ابن فارس عامر وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمقنب [٦]

فهو يعلن صراحة أنه لم يعتمد فى سيادته للقبيلة على إرث أخذه عن أبيه أو جده ، وأى شرف هذا الذى يستوى فيه مع من هم من نسل أبيه بلا تفرقة ولا تميز ، وإنما هو ساد القبيلة بشمائله وتفرده وبصفات فيه جعلت الناس ينظرون إليه بإكبار وإعزاز فاختاروه سيداً لهم ، وهو لم يفصل نفسه عن أهله وعن أجداده وإنما واصل مسيرتهم ، ونهج نهجهم ، وزاد عليهم ، فأصبحت الصفة أصيلة فيه ، لذلك قدمه قومه واختاروه سيداً لهم ، وهو يجعل السيادة فيه مستمرة طالما بقى على قيد الحياة فصفاته التى تعامل بها مع قومه لم تكن وراثية قد يبددها ويتخلى عنها ، عندما تكون على غير حقيقة فيه ، أما أنها نابعة من ذاته فإنها ستظل كذلك إلى آخر عمره ، ومن ثم يكون فى نظر قومه جديراً بالسيادة والتفرد .

ولما كانت هذه الصفات أصيلة فيه فقد تحمس لقبيلته ، وسعى إلى رفعتها وعزها فأفادها كثيراً فى حياتها ، والمعروف أن الإنسان الجاهلي لا يستطيع الحياة إذا رفعت قبيلته يدها عنه ، لذلك كان الفرد فى القبيلة يحرص على طاعتها ، والإذعان لمشيئتها لكي تحتضنه فى عباءتها فلا يتعرض لأذى من أحد ، ولكن الشاعر هنا يفتخر بحمايته للقبيلة فيكون بذلك قد أفادها بأكثر مما أفادته لأن خصاله تحميه أكثر من حماية القبيلة له .

وفى المعنى نفسه يقول عبد الله بن معاوية : [٧]

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوماً على الأحساب نتكل

---

(٥) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري ، ابن عم لبيد الشاعر ، وهو فارس قيس ، ويعد من الشعراء المجيدين ، أدرك الإسلام ولم يسلم . راجع الشعر والشعراء ١/ ٣٤١ ، وشرح المفضليات ٣/ ١٢٣٢ .

(٦) الكامل . للمبرد ١ / ١٦٣ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٤٣ .
والمقنب : جماعة الخيل التى تجتمع للإغارة . القاموس المحيط ١ / ١٢٤ .

(٧) عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ١٢٩هـ - ٧٤٦م ، من شجعان الطالبيين وأجوادهم وشعرائهم . الأعلام للزركلي ٥/ ٩٤.

نبني كما كانت أوائلنا　　تبني ونفعل مثلما فعلوا [٨]

فهو فى البيتين يشير إشارة خفيفة إلى كرم محتده ، وعراقة أصله إلا أنه لم يتوقف عنده بل تعداه إلى نفسه ، وهذا هو أصدق وأصح الفخر ، لأنه صنع من نفسه إنساناً يقدم أمجاداً تتساوى ــ إن لم تفق ــ مع ما قدمته قبيلته القديمة ، وهذا ما نعبر عنه بتواصل الأجيال ، والذى نتمنى أن يحل فينا فينهض الشباب ويصنعوا مثل ما كان يصنعه آباؤهم فى الماضي ، إن حرصنا على ذلك ستعود إلينا أمجادنا جديدة قوية ، وما طمع فينا عدو أو حاقد .

وهكذا عزا بعض الشعراء كرم الخلال وطيب الشمائل التى يتمتعون بها إلى شيم مركوزة فى نفوسهم لم يكتسبوها من الآباء والأجداد ، ولا عن القبيلة أو العشيرة .

ومما لاشك فيه أن مثل هذه الشيم التى يفعلها المرء طواعية تكون باختياره نابعة من داخله وذاته لا يكتسبها من آبائه وأجداده كما يكتسب منهم عراقة النسب ، فقد يكون المرء شريفاً فى نسبه لكن صفاته الخلقية ذميمة فتلحقه المذلة ويركبه اللوم والعار ، وقد لا ينتمي المرء إلى قبيلة ذائعة الصيت كثيرة العدد ، أو إلى أب شريف النسب ، لكن أفعاله وخصاله الكريمة هي التى ترفع قدره ، وتعلى شأنه ، وتجعله يترفع عن الدنايا والنقائص ، ومن ثم يحظى بالمدح والثناء لا الذم والازدراء ، وتبقى بعد ذلك وقبله مكانة القبيلة في المجتمع هي سنده وعونه في الملمات والخطوب .

وهذا البحث ليس من سبيله أن يعرض للفخر الجاهلي بصفة عامة ، بل سيغض الطرف عن ذلك الفخر الذى يطل علينا بنزعة الغرور والتعالي التى كثيراً ما سيطرت على النفس العربية كالفخر بالأحساب والأنساب ، والشجاعة والبطولة والفروسية ، أو كالفخر الذى يثير العصبية القبلية ، أو يدعو إلى الأخذ بالثأر وإثارة الأحقاد والأضغان ، كل ذلك لن نعرض له وليس من هدف البحث ، وإنما هدف البحث أن يعرض للجانب المشرق فى حياة الجاهلي ، فيعرض لصفات أخرى افتخر بها الجاهليون تضارع عراقة الأحساب والأنساب ، هذه الصفات تمثل الدستور الأخلاقي الذى تحلى به الفاخرون ، وأشادوا من خلاله إلى مكارمهم ومحامدهم التى تكون فى مجموعها المظاهر الاجتماعية التى تعارفوا عليها والتزموا بمراعاتها ، وتعاملوا فيما بينهم من خلالها ، ومن ثم فالبحث مقصور على ذلك

---

(٨) العقد الفريد ٢ / ٢٩٠ .

الفخر الذى يتصل بالمظاهر الاجتماعية التى سادت فى البيئة العربية الجاهلية .

فما هذه المظاهر الاجتماعية التى تفاخر بها الجاهليون وكونت دستورهم الأخلاقي فى ذلك العصر ؟

لاشـــك أن ظـــروف الحياة الصحراوية التى عاشها العرب فى العصر الجاهلي من جدب الأرض وحياة الحل والترحال تتبعاً لمواقع الغيث ومواطن الكلأ ، إلى جانب الحروب الكثيرة والمعارك الطاحنة التى خاضوها فيما بينهم ، حتى صارت هذه الحروب عادة مألوفـــة ، وســـنة متبعة ، لاشك أن كل ذلك قد فرض على العرب طباعاً وأخلاقاً خاصة تناسبهم ، وألزمهم تقاليد وقيماً لا يستطيعون عنها حولاً ، ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة ، وصـــارت لهم عنواناً بين الناس ، ثم أصبحت مثلاً يفخرون بها ، ويفاخرون بها غيرهم ، فقد آمـــنوا بمجموعة من الخلال كانت بالنسبة لهم المثل العليا التى يحرصون على التمسك بها ، وسأعرض لها على النحو الآتى :

حماية الجار وما يتفرع عنها من قيم :

يطالعـــنا فى مقدمة هذه المظاهر الاجتماعية التى تفاخر بها الشعراء العرب فى ذلك العصر ما أطلق عليه " الإجارة " ، والإجارة عادة متأصلة فى المجتمع الجاهلي ، فكل مضطهد يســـتطيع أن يطلـــب الحماية من رجل مرموق فى قبيلة تقف وراءه وتحميه فلا يستطيع أن ينالـــه من يطلبه ، وكان لكل فرد من أفراد القبيلة " أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصـــبحت قبيلـــته ملـــزمة به ، وأصبح لـــه ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات " . [٩]

وفى الشعر الجاهلي عدة نماذج لهذه الظاهرة نعرض لبعضها على النحو الآتى :

هـــذا عوف بن عطية [١٠] يحمى جاره ويدافع عنه ، ويمنع عنه الظلم والأذى ولا يحمله فوق طاقته ، فللجار حقوق مصونة وعهود موثوقة .

يقول :

---

(٩) العصر الجاهلي . د. شوقي ضيف ص٦١ .

(١٠) عوف بن عطية بن الخرع التميمي ، شاعر فارس جاهلي ، ويعد من شعراء الطبقة الثامنة من شعراء الجاهلية ، وله ديوان شعر صغير ، والخرع لقب جده عمـــرو ابن عبس . راجع البيان والتبيين ٨٧/٣ ، وشرح المفضليات ٣/ ١١٣٣ .

وأمنع جاري من المجحفا ت والجار ممتنع حيث صارا [١١]

ويؤكد هذا المعنى المثقب العبدي [١٢] فيفخر بإكرام الجار ورعاية حقه ، فيقول :

أكرم الجار وأرعى حقه إن عرفان الفتى الحق كرم [١٣]

ويفخر عنترة بن شداد بحماية جاره والدفاع عنه وإكرام الضيف ، فيقول :

وإني لأحمي الجار من كل ذلة وأفرح بالضيف المقيم وأبهج [١٤]

أما قوم عبيد بن الأبرص [١٥] فيحافظون على الحليف والجار وحليفهم دائماً مصون مكرم ، وجارهم لا يلحقه أذى ما دام فى حمايتهم ، يقول عبيـــــد ابن الأبرص :

إنا لعمرك ما يضا م حليفنا أبداً لدينا [١٦]

ويقول :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلف بين أرامل الأيتام [١٧]

والحقيقة : كل ما يحق على الإنسان أن يحميه ، فهم يمنعون جارهم ، وكل من يلجأ إليهم .

أما قيس بن عاصم [١٨] فقومه لا يتجسسون على جيرانهم ولا يتحسسون عيوبهم ولا يشغلهم ذلك ، وإنما كل الذى يعنيهم ويشغلهم هو الحفاظ على جيرانهم والمحافظة على

---

(١١) شرح المفضليات للتبريزي ٣ / ١٣٧٧ .

(١٢) المثقب العبدي : اسمه عائذ بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدي بن عوف ابن نزار بن معد بن عدنان ، من بني أسد ، شاعر جاهلي قديم كان في زمن عمـــرو ابن هند وكانت وفاته نحو عام ٣٥ق هـ
راجع الشعر والشعراء ١/ ٤٠٢ ، وشرح المفضليات ٢/ ٥٥٥ ، ومعجم الشعراء ١٦٧ ، وتاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ١/ ١٦٠ .

(١٣) ديوان شعر المثقب العبدي ص٢٢٩ ، وشرح المفضليات للتبريـــزي ٢ / ١٠٣٨ .

(١٤) ديوان عنترة ص٦١ .

(١٥) هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر ... بن أسد ، وكان عبيد شاعرا جاهليا قديما من المعمرين ، وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس .
راجع ترجمته في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٣ .

(١٦) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٨ .

(١٧) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٣ .

(١٨) أبو علي قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن مقاعس بن زيد مناة بن تميم شاعر فارس شجاع ، كان سيدا في الجاهلية ، وهو أحد من وأد بناته في الجاهلية . راجع معجم الشعراء ١٩٩ ، والبيان والتبيين ١/ ٢١٨ ، ٢١٩ .

حقوقهم يقول :

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطنٌ [١٩]

ويمدح حسان بن نشبة العدوي تيماً لأنها أبت أن تسلم جارها ، فيقول :

وإني وإن لم أفد حيا سواهـــم فداء لتيم يوم كلـــب وحميرا

أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا [٢٠]

أما يزيد بن حمار السكواني [٢١] فيمدح بنى شيبان يوم ذى قار بحمايتهم الجار ومساواته بأبناء القبيلة حتى أنه لينسى أنه جار لهم ، فيعيش بينهم معززاً مكرماً ، يقول :

ومن تكرمهم فى المحل أنهم لا يعلم الجار فيهم أنه الجار

حتى يكون عزيزاً من نفوسهم أو أن يبين جميعاً وهو مختار [٢٢]

وكانت القبيلة تجد فى حماية الجار مصدر فخر لها ، ففى منعته منعة لها ، وأى أذى يلحق به يلحق بها ، ولذلك يعرض حجر بن خالد الثعلبي بغير قومه الذين يروع جارهم ويغدر به ولا يهبون لنجدته ونصرته والدفاع عنه ، يقول :

ونحن الذين لا يروع جارنا وبعضهم للغدر صم مسامعه [٢٣]

ويوصى العباس بن مرداس [٢٤] غيره بالحفاظ على الجار ، فيقول :

عليك بجار القوم عبد بن حبتر فلا ترشدن إلا وجارك راشد [٢٥]

---

(١٩) الشعر الجاهلي . د. خفاجي ص٣٧٣ .

(٢٠) ديوان الحماسة .شرح التبريزي ١ / ١٢٥ .

(٢١) يزيد بن حمار السكواني : من فرسان الجاهلية ، شهد حرب ذي قار وكان حليفا لبني شيبان ، وقام بحركة عسكرية كانت من أسباب هزيمة الفرس . راجع الأعلام ٨/ ١٨١ ، ومعجم الشعراء ٤٧٨.

(٢٢) ديوان الحماسة . شرح التبريزي ١ / ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٢٣) ديوان الحماسة . شرح التبريزي ١ / ١٩٨ .

(٢٤) العباس بن مرداس بن أبي عامر بن رفاعة بن حارثة السلمي ، أبو الهيثم ، من مضر شاعر فارس من سادات قومه ، أمه الخنساء الشاعرة ، أدرك الجاهلية والإسلام ، ويدعى فارس العبيد بالتصغير وهو فرسه ، وكان بدويا قحا . راجع : الأعلام ٣/ ٢٦٧ ومعجم الشعراء ١٠٢ .

(٢٥) ديوان الحماسة . شرح التبريزي ١ / ١٦٨ .

أما عروة بن الورد [٢٦] فيقتسم قوته مع جاره ، ويقول إن الطعام حرام علينا لا نذوقه مادام ليس لجارنا مثله ، يقول :

فإن حميتنا [٢٧] أبدا حرام وليس لجار منزلنا حميت [٢٨]

دريد بن الصمة [٢٩] يدافع عن جيرانه ويخاطب بنى الديان أن يردوا أموال جيرانه التى سلبوها فى إحدى الغارات ، وكذلك الأسرى التى ترسف فى القيود الثقيلة ، وأيضاً السبايا ، ولهم الخيار بين أمرين ، إما أن يفعلوا ذلك بمن وتفضل منهم ، أو بالمال إن أرادوا مالاً ، فهو يضحى بكل ما يملك من أجل جاره يقول :

بنى الديان ردوا مال جارى وأسرى فى كبولهم الثقال

وردوا السبى إن شئتم بمن وإن شئتم مفاداة بمال [٣٠]

ويفخر ــ أيضاً ــ : دريد بن الصمة بحسن جواره ، فيقول :

وإنى لا يهر الضيف كلبى ولا جارى يبيت خبيث نفس

فإن أكدى فتامكة [٣١] تؤدى وإن أربى فإنى غير نكس [٣٢]

فهو يكرم ضيفه وجاره ، كما أن كلبه لا يزجر الضيف فضيفه مكرم ، وكذلك فإن جاره لا يبيت له نية خبيثة ، ومرد ذلك أنه سميح الخلق معه ، فإن افتقر ذلك الجار قدم له ناقة كبيرة السنام ، وإن زاد ماله فهو ليس بلئيم أو بخيل حتى يسترد ما قدمه لجاره ، فالجار له حقوق مصونة ، ويجب أن تحسن معاملته فى كل الأحوال .

ولذلك فإن " حاتم الطائي " يخزى ويأنف أن يتضلع شبعاً بما ينعم من لذيذ المأكول

---

(٢٦) عروة بن الورد بن زياد العبسي أبو نجد، شاعر بدوي قح من شعراء الجاهلية ، مات قتيلا سنة ٥٩٦م ، كان لأبيه مقام محمود في حرب داحس ، له ديوان شعر مطبوع . راجع تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٠٩ .

(٢٧) الحميت : نوع من الطعام ، وعاء السمن . القاموس المحيط ١ / ١٥٢ .

(٢٨) موسوعة الشعر العربي ١٧٥ .

(٢٩) دريد بن الصمة من جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وأمه ريحانة بنت معد يكرب ، وهو أحد الشجعان المشهورين وذوي الرأي في الجاهلية ، شهد يوم حنين ، وقتل يومئذ فيمن قتل من المشركين .راجع : الشعر والشعراء ٢/ ٧٥٣ .

(٣٠) ديوان دريد بن الصمة ١٤٩ ، وموسوعة الشعر العربي ص٦٠٥ .

(٣١) التامكة : الناقة الكبيرة . القاموس المحيط ٣ / ٣٠٧ .

(٣٢) ديوان دريد بن الصمة ص١١٩ .

وجاراته جياع مهازيل أضرهن رديء الطعام ، يقول :

وإني لأخزى أن ترى بي بطنة وجارات بيتي طاويات ونحف [٣٣]

أما مالك بن حريم الهمدان [٣٤] فإن جارته مصونة لا يرمى بالفحش وسوء القول لأنها في كنفه وجواره ، يقول مفتخراً ومعدداً لصفاته الكثيرة التي يتحلى بها :

وثالثة : أن لا تقذع جارتي إذا كان جار القوم فيهم مقذعا [٣٥]

وقبيلة السموأل بن عادياء [٣٦] الجار عزيز في كنفهم ، وكذلك من يجيرونه ، يقول السموأل بن عادياء :

وما ضرنا أنا قليل ، وجارنا عزيز ، وجار الأكثرين ذليل

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل [٣٧]

فالشاعر يقرر أن القلة في العدد لا تضر ، لأن أصحابها يتصرفون في حذر ولا يناصبون غيرهم العداء بدون داع ، ولا يرتكبون حماقة تودي بهم ، أو تهز كبرياءهم ، لذلك يحرصون على العيش في أمان ، وكل الذين يجاورونهم لا يتعرضون لإيذائهم فيعيشون أعزة كرماء ، أما الأكثرون فإن العزة تدفعهم إلى البطر ، والبطر يجرهم إلى الرعونة والتهور والغرور الذي يدفعهم إلى فرض السيطرة على من يجاورهم ، وعلى ذلك فجارهم ذليل أبداً .

وانظر إلى هذا الصراع الدرامي الموجود داخل هذا البيت قلة محبوبة لأن من يجاورهم يعيش في مأمن وطمأنينة ، وكثرة بغيضة لا يرغب في جوارها أحد ، لأنها تجلب عليه الذل والهوان وهكذا تجد هذا الصراع المستمر داخل البيت ، والذي حقق الشاعر من ورائه الفخر بقومه .

---

(٣٣) ديوان شعر حاتم ص٢١١ .

(٣٤) مالك بن حريم بن مالك من بني دلان الهمداني ، شاعر همدان في عصره وفارسها ، وصاحب مغازيها ، جاهلي يماني ، ويعد من فحول الشعراء .
راجع : الأعلام ٥/ ٢٦٠ ، ومعجم الشعراء ٢٥٥ .

(٣٥) الأصمعيات ص٦٤ ، والقذع : الرمي بالفحش وسوء القول . القاموس المحيط ٣ / ٦٥

(٣٦) السموأل بن عادياء الغساني ، ملك تيماء وهي مدينة بين الشام = = والحجاز وهو الذي أودعه امرؤ القيس أدرعه وكراعه عند ذهابه إلي ملك الروم ليطلب منه العون والمدد من قتلة أبيه .راجع:الشعر والشعراء ١/ ١٢٤ .

(٣٧) الأمالي . لأبي علي القالي ١ / ٣١٩ .

وفى البيت الثاني يشير الشاعر إلى أنهم يتحصنون فى جبل متسام فى الارتفاع لا يستطيع أن يطيل النظر إلى قنته فيرجع البصر حسيراً وهو كليل ، هذا الجبل يأوون إليه هم ومن يستجير بهم ، وليس ذلك جبناً أو فراراً ، وإنما هو يومئ بالجبل إلى القوة والحصانة والحماية التى يمنحونها على الرغم من قلتهم لمن يجيرونه من الفارين من خطر يتربص بهم ، فهذا الجبل منيع بهم ، بقدرهم وقوتهم .

لذلك أرى أن الشاعر لا يقصد الحقيقة فى قوله (لنا جبل ...) ، فالجبل الحقيقي مباح لمن له الكثرة والقلة حتى للصوص ، وإنما يقصد من وراء ذلك قوتهم القادرة على حماية من يلوذ بهم ، أو يحتمى فيهم من الذين يجيرونهم .

وهكذا أصبحت حماية الجار ، والإجارة جبلة وقانوناً يحرص عليه الجاهلي ويلتزم به ويعمل على تطبيقه ويتيه فخراً بهذه الظاهرة الاجتماعية المثالية .

الكرم وبيئة الجاهلي :

ومن المظاهر الاجتماعية التى تفاخر بها شعراء الجاهلية وتتصل اتصالاً قوياً بالجار والإجارة ــ أيضاً ــ خصلة الكرم ، التى تفجرت من حياة الصحراء القاسية خاصة فى الشتاء عندما تزداد حياتهم جدباً وقحطاً ويقل الزاد وتضيق اليد بل والدنيا فى وجه المعوزين منهم فينبرى أغنياؤهم يقدمون ما يملكون لبني جلدتهم وعشيرتهم كما افتخروا كثيراً بإكرام الضيف والترحيب بحلوله .

يقول المسيب بن علس[٣٨] مفتخراً ومادحاً أحد رجال قبيلته وهو القعقاع ابن معبد بن زرارة الذى كان يدعى بتيار الفرات الذى يسخو ويجود فى وقت الشدة والبرد ، حيث يحل الجميع ببيته ، وهو بهذا العمل أجود من الخليج ، ومن هنا جاءت تسميته بتيار الفرات :

وإذا تهيج الريح من صرادها[٣٩] ثلجاً ينيخ النيب بالجعجاع[٤٠]

---

(٣٨) المسيب بن علس : المسيب لقب واسمه زهير بن علس من شعراء بكر بن وائل المعدودين ، وهو من بني ضبيعة بن نزار ، وهو خال الأعشى ، شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام .
راجع : الشعر والشعراء ١/ ٤٠٢ ، وشرح المفضليات ١/ ١٨٩ .

(٣٩) صرادها : الريح الباردة . القاموس المحيط ١ / ٣١٨ .

(٤٠) النيب : الناقة المسنة . القاموس المحيط ١ / ١٤٠ .

أحللت بيتك بالجميع وبعضهم متفرق ليحـــل بالأوزاع
ولأنت أجود من خليج مفعـــم متراكم الآذى ذى دفاع [٤١]

فحين يشتد الزمان حتى إن الإبل صارت لا تبرح مباركها من البرد ، ويمتنع الناس عن الجـــود ، فإن هذا الرجل يؤثر أن يكون مع الجمع الكثير ، فترتفع حاجاتهم إليه وتشملهم عنايـــته وبره ، فى حين أن الناس يختارون التوحد والمجانبة ، وهو فى كرمه وجوده وسخائه يشبه الخليج الممتلئ بالمياه ، الذى يجذب السيل إليه من كل جانب .

أما عمرو بن شأس[٤٢] فيفتخر بقومه الذين يجودون فى أوقات الشدة ، فيقول :

المطعمون إذا النجوم خوت وأحاط بالمتوحد المحل [٤٣]

ويكرر المعنى ذاته فى موضع آخر ، فيقول :

وإن يأتنا ذو حاجة يلف وسطنا مجالس ينفى فضل أحلامها الجهلا
مصاليت أيسار إذا هبت الصبا نعف ونغنى عن عشيرتنا الثقلا [٤٤]

ويقول سلامة بن جندل التميمي [٤٥] فى المعنى نفسه :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب [٤٦]

فهم يبادرون إلى من يستغيث بهم ، ويمدون يد العون لمن يلجأ إليهم أو يطلب العون والمدد منهم .

ويقول ـــ أيضاً ـــ :

قـــد يســـعد الجـــار والضـــيف الغـــريب بنا والسائلون ونغلى ميسر النيب [٤٧]

---

(٤١) شرح المفضليات للتبريزي ١ / ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٤٢) عمرو بن شأس بن عبيد بن ثعلبة الأسدي ، أبو عرار ، شاعر جاهلي مخضرم ، عده الجمحي في الطبقة العاشرة من فحول الشعراء ، وكان ذا قدر وشرف في قومه ، له ديوان شعر مطبوع .
راجع : معجم الشعراء ٢٢ ، والأعلام ٥/ ٧٩ .
(٤٣) ديوان عمرو بن شأس ص٣٦ .
(٤٤) ديوان عمرو بن شأس ص ٤٠ ، ٤١ ، ومصاليت : ماضون فى الأمور .
(٤٥) سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن تميم شاعر جاهلي قديم ، وهو سن فرسان تميم السعدودين ، و كان وصافا للخيل. راجع : شرح المفضليات ١/ ٢٢٣ ، والبيان والتبيين ٣/ ٣١٨ ، والشعر والشعراء ١/ ٢٧٨ .
(٤٦) شرح المفضليات ١ / ٤٤٣ .
(٤٧) شرح المفضليات ١ / ٤٢٦ .

ففـي وقـت الشـدة يسعد بنا الجار والضيف الغريب البعيد الدار ، وكل من لـه مسـألـة ، فـنلجأ إلى ضـرب القـداح لنخـرج الـناقة المسنة المرتفعة القيمة والثمن لنعقرها،ونفرقها فى ذوى الحاجـة .

أما المتنخل الهذلي [٤٨] فيقول مفتخراً بإكرام الضيف :

لا در درى إن أطعمت نازلكم قرف الحتى وعندى البر مكنوز

لو أنه جاءنى جوعـان مهتلك من بؤس الناس عنه الخير محجوز

لبات أسوة حجاج وإخوتـه فى جهدنا أولـه شف وتمزيز [٤٩]

أسـلوب الدعاء على النفس لتأكيد المعنى وسيلة من وسائل التعبير الجاهلي عن القيم الماجدة .

فالشـاعر يقـول لا رزقت إن كنت أطعم الضيف القشور ، وأخبى ما هو أثمن وأطيب ، يريد إنه لكرمه يبذل كل ما عنده من ثمين ، ولو أن إنساناً جوعان يكاد يهلك من شدة فقره وفقر من يحيطون به ، هذا الرجل لو جاءه لأكرمه وفضله وميزه بالقرى الوفير .

ويفتخر دريد بن الصمة بالكرم فى وقت الشدة وإطعام الطعام وأنه يبدأ بالمستحقين أولاً ، فيقول :

وقد علم المراضع فى جمادى إذا استعجلن عن حز بنهس

بأنى لا أبيت بغير لحـم وأبدأ بالأرامل حين أمسى [٥٠]

إن المراضـع فى شـهر جمادى ، خاصة عندما يشتد البرد والقحط فإنهن من شدة الجـوع وشدة الزمن يستعجلن بنهس اللحم عن تقطيعه ، وقد علم المراضع أن بيته لا يخلو من اللحم وأنه يقدم اللحم ويجود به للأرامل حين يمسى ، ويبدو أن جمادى آنذاك كان من الشهور التى يشتد فيها البرد ، ولولا ذلك ما خصه بالذكر دون غيره من الشهور ، ويؤكد هذا المعنى قول الشاعر، مرة بن محكان المسدى :

---

(٤٨) المتنخل الهذلي : هو مالك بن عمرو بن عشم بن سويد بن حنش بن خفاعة من لحيان ، من شعراء هذيل .راجع : الشعر والشعراء ٢/ ٦٦٣ ، ومعجم الشعراء ٢٥٧ .

(٤٩) موسـوعة الشـعر العربـي ٦٣٩ ، وقـرف الشـئ : قشـره ، القامـوس ٣ / ١٩٠ الحتى : المقل ، القاموس ٤ / ٣١٦ ، الشف : الفضل ، القامـوس ٣ / ١٦٤ ، تمزيز : تفضيل ، القاموس ٢ / ١٩٩ .

(٥٠) ديوان دريد بن الصمة ١١٦ .

في ليلة من جمادى ذات أنديـــة لا يبصر الكلب في ظلمائها الطنبا [٥١]

وهذا عروة بن الورد يفتخر بالكرم فيقول :

يريح على الليل أضياف ماجد كريم ومالي سارحا مال مقتر [٥٢]

فالليـــل يأتـــيه بضيوف كرام ، فيكرم مثواهم ، وينحر لهم الإبل ، فإذا جاء الصباح تسرح إبله قليلة العدد كأنها إبل فقير لكثرة ما نحر منها في الليل .

ويقول مفتخراً ـــ أيضاً ـــ بكرمه :

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد [٥٣]

عافي إنائي شركة : أي يأتيني من يشركني فيه ، فهو يملأ إناءه لبنا حتى يفيض ويكثر ، فإن طرقه إنسان وجد ذلك مهيأ له وكان شريكاً فيه ، قل أو كثر عندي ، وأنت امرؤ عافي إنائك واحد ، أي تستأثر به لنفسك وحدك دون أضيافك فتشبع وهم يجوعون ، فالشطر الأول كناية عن الكرم والشطر الثاني كناية عن البخل والشح .

أما السموأل بن عادياء فيذكر أن نار ضيافتهم لا تطفأ عن الطارق أبداً ، فالضيف يترل في ضيافتهم على الرحب والسعة فيمضي مثنياً عليهم لا يلصق بهم ذماً ، يقول :

وما أخمدت نار لنا دون طارق ولا ذمنا في النازلين نزيل [٥٤]

ولا غـــرو في ذلك فالكرم والجود فيهم متأصل ، يقول في الرد على من عيرهم بقلة العدد :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل [٥٥]

فالشاعر آله كثيراً أن تعير قبيلته بقلة العدد ، ومن المتعارف عليه أن الكثرة عز القبيلة وصونها ودرعها الواقي من كل مرزئة ، ولكن الشاعر في فنية متقنة جعل هذا العيب محمدة بـــل ومجالاً لفخره ، فالكرام قليل ، والكرم هو البذل والعطاء ، وليس بالضرورة أن يكون مقصـــوراً على المال ، فقد يكون الكرم بالرحمة ، بالصفح بالمودة ، وبغير ذلك من الصفات الحميدة وهؤلاء لاشك قليل لكنهم كرماء .

---

(٥١) جمهرة الأمثال ـ العسكري ١ / ٢٤٠ .
(٥٢) موسوعة الشعر العربي ١٦٣ .
(٥٣) موسوعة الشعر العربي ١٧٩ .
(٥٤) الأمالي ١ / ٣٢٠ .
(٥٥) الأمالي ١ / ٣١٩ .

وهذا طرفة بن العبد يفتخر أيضاً بكرمه ويتبرأ من أن يعتصم بالتلاع تهرباً من القرى ، فهو لا يستتر من أحد لأنه يشعر بواجبه الاجتماعي أوضح الشعور وأقواه يقول :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد [٥٦]

ويفخر بكرم قومه خاصة فى فصل الشتاء حيث يجف الضرع ، ويهلك الزرع ، ويمتنع المطـــر ، وتقسو الطبيعة ، فى ظل هذه الأحوال الصعبة والظروف القاسية تظهر أصالتهم فى الكرم وإطعام الطعام لا يفرقون فى ذلك بين غني وفقير ، عظيم وحقير فالكل سواء حيث إن جفـــانهم الضـــخمة ممتلئة دوماً بالطعام الطيب ، هذه الجفان معدة للضيوف والجيران بصفة مستمرة لأنهم ينحرون كل يوم ، يقول :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقـــر
حين قال الناس فى مجلسهم ألقتار ذاك أم ريح قطـــــر
بجفان تعتـــــرى نادينا من سديف حين هاج الصنبر
كالجوابي لاتني مترعـــــة لقرى الأضياف أو للمحتضر [٥٧]

أما قوم الأعشى فيقدمون للأضياف خاصة فى أوقات الجدب ما لذ وطاب من اللحوم ، يقول :

حجروا على أضيافهم وشووا لهم من شط منقية ومن أكباد [٥٨]

وعامر بن الطفيل يفخر بقومه بنى عامر الذين يجودون على الأضياف وقت الشدة والجدب والقحط ولا غرو فى ذلك فهم كرام يغدقون على من يطرق بابهم ، يقول : .

إذا سنة عزت وطال طوالها وأقحط عنها القطر واصفر عودها

---

(٥٦) ديوان طرفة بن العبد ص٢٤ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص ٧٨ .
(٥٧) ديـــوان طـــرفة بـــن العـــبد ص٤٣ ، ٤٤ . قـــتار : رائحـــة الشـــواء ، القامـــوس المحيط ٢ / ١١٣ ، قطر : العود الذى يتبخر به ، القاموس ٣ / ١١٩ ، سديف : شحم السنام ، القاموس ٣ / ١٥١ ، الصنبر : الريح الباردة ، القاموس ٢ / ٧٣ الجوابى : مفردها : جابية وهي الماء فى الحوض ، القاموس ٤ / ١١٠ .
(٥٨) ديـــوان الأعشـــى ص٢١٥ ، الشـــط : جانـــب الســـنام . القامـــوس المحـــيط ٢ / ٣٦٨ .

وجدنا كراما لا يحول ضيفنا إذا جف فوق المرولات جليدها [٥٩]

وهذا حجر بن خالد الثعلبي يخبر أن قومه ينتقون خيار الإبل وكرائمها عند حلول الضيفان ، ويرفض أن يلجأ قومه إلى نحر الكسيرات المهزولات من الإبل ، فليس ذلك من إكرام الضيف ، يقول :

ويجلب ضرس الضيف فينا إذا شتا سديف السنام تستريه أصابعه [٦٠]

أما المذلول بن كعب العنبرى [٦١] فيخاطب زوجته بعد أن استهجنت طحنه للضيفان ، فيقول :

لعمر أبيك الخير إن الخادم لضيفي وإني إن ركبت لفارس

وإني لأشرى الحمد أبغي رباحه وأترك قرنى وهو خزيان ناعس [٦٢]

ويفخر ربيعة بن مقروم الضبي [٦٣] بقومه الذين يبذلون المال قرى للضيف ، وإغاثة للملهوف ، ودفعاً لدية ، ويصفهم بالسخاء ، فيقول :

أليسوا الذين إذا أزمة أحت على الناس تنسى الحلوما

يهينون فى الحق أموالهم إذا اللزبات التحين المسيما [٦٤]

فهم حين تشتد الأزمات على الناس حتى تنسيهم عقولهم ينفقون أموالهم دفعاً عنهم .

والواقع أن شعراء الجاهلية الفتخروا كثيراً بظاهرة إكرام الضيف وسرعة إجابته وتقديم أشهى المأكولات إليه .

---

(٥٩) ديوان عامر بن الطفيل ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٦٠) ديوان الحماسة شرح التبريزي ١ / ١٩٩ .

(٦١) المذلول بن كعب العنبري ، شاعر من أعيان العرب ، جاهلي ، شهر بالكرم قال التبريزي عنه " كان مملكا " راجع : الأعلام ٨/ ٧٩ .

(٦٢) ديوان الحماسة شرح التبريزي ١ / ٢٩١ .

(٦٣) ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر بن خالد الضبي ، من ضبة ، جاهلي إسلامي ، وهو من شعراء مضر المعدودين .
راجع : شرح المفضليات ٢/ ٦٦٥ ، والشعر والشعراء ١/ ٣٢٦ .

(٦٤) شرح المفضليات ٢ / ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، الحلوم : العقول ، القاموس المحيط ٤ / ١٠٠ ، اللزبات : جمع لزبة وهي القحط ، القاموس ١ / ١٣٢ ، التحين : قشرن ، القاموس ٤ / ٣٨٧ ، المسيم : صاحب الإبل والغنم ، القاموس ٤ / ١٣٥ .

وها هو ذا المرقش الأكبر [٦٥] يفتخر بقومه ويخبر أن مقارى ضيوفهم عظيمة واسعة لكثرة روادها ، فيقول :

عظام الجفان بالعشيات والضحا مشابيط للأبدان غير التوارف [٦٦]

وهو يجعل ذلك الكرم بالعشى والضحى يريد اتصال ذلك فيهم .

وقريب من هذا المعنى قول ضمرة بن ضمرة النهشلي[٦٧] مفتخراً :

وطارق ليل كنت حـم مبيته إذا قل فى الحى الجميع الروافد

وقلت له أهلاً وسهلاً ومرحبا وأكرمه حتى غدا وهو حامد [٦٨]

وهذا ربيعة بن مقروم الضبى يفتخر بأنه يقدم للضيف أطيب أنواع الأكل وأكثره فى وقت الشدة والبرد ، فيقول :

وأضياف ليل فى شمال عرية قربت من الكوم السديف المرعيا [٦٩]

وعبد قيس بن خفاف [٧٠] يرى أن إكرام الضيف ومبيته حق واجب ، يفتخر بذلك ، فيقول :

والضيف أكرمه فإن مبيتـه حق ولا تك لعنة للنزل

واعلم بأن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته وإن لم يسأل [٧١]

---

(٦٥) المرقش الأكبر : عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .. ابن أسد بن ربيعة بن نزار ، شاعر جاهلي عاصر مهلهلا وشهد حرب البسوس راجع:شرح المفضليات ٢/ ٨٠٩ ، والشعر والشعراء ١/ ٢١٦.

(٦٦) شرح المفضليات ٢ / ٨٤٨ .

(٦٧) ضمرة بن ضمرة النهشلي بن جابر بن زيد مناة بن تميم ، من رجال مجاشع شاعر جاهلي فارس سيد شريف أحد حكماء العرب المذكورين ، وكان من رجال بني تميم في الجاهلية لسانا وبيانا .
راجع : شرح المفضليات ٣/ ١١٢٨ ، والبيان والتبيين ١/ ١٧١ .

(٦٨) المصدر نفسه ٣ / ١١٣٠ ، ١١٣١ .

(٦٩) المصدر نفسه ٣ / ١٢٦٨ .

(٧٠) عبد قيس بن خفاف البرجمي ، من بني عمرو بن حنظلة ، من البراجم ، شاعر جاهلي مجيد ، حمل دماء عن قومه فأسلموه فيها فأتى حاتما الطائي ومدحه فحملها عنه .
انظر شرح المفضليات ٣/ ١٢٨٩ ، ومعجم الشعراء ٢٠١.

(٧١) شرح المفضليات ٣ / ١٢٩٠ .

ويحدثنا عمرو بن الأهتم السعدي [٧٢] عن كرمه فيحكي فى شعره قصة رجل ضل طريقه ليلاً ، فاستضافه ، ورحب به ، وقام إلى بعير سمين من الإبل فنحره وظل يطعم الضيف حتى شبع ثم نام قرير العين مستدفئاً من البرد الشديد ، ثم يقول فى نهاية القصة إن كل كريم يجب أن يتقى ذم الناس له بالقرى .

يقول : —

وإنى كريم ذو عيال تهمنى ... نوائب يغشى رزؤها وحقوق

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خفوق

يعالج عرنيناً من الليل بارداً ... تلف رياح ثوبه وبروق

تألق فى عين من المزن وادق ... له هيدب دانى السحاب دفوق

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل ... لأحرمه إن المكان يضيق

وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... فهذا بيت صالح وصديق

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... مقاحيد كوم كالجدادل روق

بأدماء مرباع النتاج كأنها ... إذا عرضت دون العشار فنيق

فجر إلينا ضرعها وسنامها ... وأزهر يحبو للقيام عتيق

وبات لنا منها وللضيف موهنا ... شواء سمين زاهق وغبوق

وبات له دون الصبا وهي قرة ... لحاف ومصقول الكساء رقيق

وكل كريم يتقى الذم بالقرى ... وللخير بين الصالحين طريق [٧٣]

يتحدث فى البيت الأول عن كرمه وشمائله ، ويريد بقوله : ذو عيال : الوفود من الأضياف والطلاب وأولى الوسائل من العشيرة والجيران ، ومعنى تهمنى نوائب : يريد يهمني ما يغشاهم فأتحمل عنهم الأثقال بمالي وجاهي .

---

(٧٢) عمرو بن الأهتم المنقري ، هو عمرو بن سنان بن سمى بن سنان بن خالد ابن منقر من بني تميم ، كان سيدا من سادات قومه ، خطيبا بليغا شاعرا شريفا جميلاً .راجع : شرح المفضليات ١/ ٤٥٠ ، والبيان والتبيين ١/ ١٠ والشعر والشعراء ٦٣٦/٢ .

(٧٣) شرح المفضليات ١ / ٤٥٢ ـ ٤٦٢ .

وفى البيت الثاني يقصد بالمستنبح ابن السيل الذى يطلب مثوى يقصده ، بعد أن ضل عن الطريق ، فيحكى بصوته نباح الكلاب طمعاً فى أن يجيبه كلب فيعدل إليه ، ومعنى : دعوته أوقدت له ناراً يستضئ بها .

وفى البيت الثالث يخبر أن هذا المستنبح قاسى جزءاً من الليل فى برد ومطر إلى أن لاقاه ، ثم يسترسل فى باقى الأبيات ليخبر أنه رحب بضيفه ولم يفحش عليه ليصرفه ، بل قام إلى البرك الهواجد : يقصد الإبل النيام ، والمقاصيد : العظام الأجسام والأدماء : الناقة البيضاء ، ومرباع النتاج ، التى تنتج فى أول الربيع وذلك أقوى لولدها ، هذه الناقة بتلك المواصفات الحسنة قام إليها السالخ والناحر ، وهيآها للشواء حتى تقدم للضيف ، فأكل الضيف حتى شبع من أطايبها ، ثم بات قرير العين بعد أن أتحفه بلحاف يلتحف به وكساء دقيق جيد ، وهكذا تغير حال المستنبح من برد قارس فى الصحراء وجوع شديد ، إلى دفء تام وامتلاء للبطن من أطايب الطعام ، وكل ذلك من جراء فعل الرجل الكريم ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس .

وقريب من هذا المعنى قول عوف بن الأحوص الكلابي[٧٤] مشيراً إلى كرمه وجوده :

ومستنبح يخشى القواء ودونه ... من الليل بابا ظلمة وستورها

رفعت له نارى فلما اهتدى لها ... زجرت كلابى أن يهر عقورها

فلا تسأليني واسألي عن خليقتي ... إذا رد عافى القدر من يستعيرها

وكانوا قعوداً حولها يرقبونها ... وكانت فتاة الحي ممن ينيرهـا

ترى أن قدري لا تزال كأنها ... لذى الفروة المقرور أم يزورهـا

مبرزة لا يجعل الستر دونـها ... إذا أخمد النيران لاح بشيرها[٧٥]

فهو يوقد النار فى الليل ليهتدي إليها الحائر الذى يخشى الهلاك فى الصحراء الخالية ، ويقول لمحبوبته لا تسأليني ولا ترجعي إلى فى تعرف أخلاقي عند تغير الزمان ، وسلي غيري

---

(٧٤) عوف بن الأحوص الكلابي : هو عوف بن ربيعة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة ، والأحوص لقب أبيه ، ويكنى أبا زيد ، وهو شاعر جاهلي شهد يوم شعب جبلة ، وهو شيخ كبير فقام بتدبير أمر قومه .
راجع : شرح المفضليات ٢/ ٦٤٢ ، والأعلام ٥/ ٩٤ .

(٧٥) شرح المفضليات ٢ / ٦٥١ ـ ٦٥٥ .

، فإن شهادة الغير أوقع فى النفس ، ثم يشير إلى عادة كانت متبعة عندهم فى حالة الجدب ، فإذا استعار أحدهم قدراً رد فيها بعض ما يطبخ ، وسمى ذلك عافى القدر ؛ لأنه كان لا يجهد أهلها مقداره ، بل كان يأتي عفواً ، ويشير إلى أنهم كانوا يرقبون القدر من شدة الجهد ينتظرون نضجها ، وكانت الفتاة المصونة تعالج معهم لا تستحي من شدة الجهد ، ويخبر أن قدره لا تحجب عن الجائع المضرور ، والمتفشى بالفروة المقرور ، لكنها كالمباح يأخذ منها من شاء ، كما أنها لا تستر عن العيون ضنا بما فيها ، وإذا أخمدت نار الضيافة بشرت هذه بالقرى .

ويفتخر الحارث بن حلزة بإكرام قومه للضيف ، فيقول :

لوجدتنا للضيف خير عمارة إن لم يكن لبن فعطف المدحج [٧٦]

فإبل القوم إذا لم يكن فيها لبن ضربوا عليها بالقداح لينحروها للضيف .

أما حاتم الطائي فللكرم فى شعره أكثر من صورة وأكثر من خاطرة ، والحديث عن كرمه يحتاج إلى بحث مستقل ، ولن نعرض إلا لبعض صور من كرمه ، يقول :

إذا كان بعض المال رباً لأهله فإني بحمد الله مالي معبد

يفك به العاني ، ويؤكل طيبا ويعطي إذا من البخيل المصرد [٧٧]

فمال حاتم مذلل لكل الناس ، يفك به أسيراً ، وينقذ به شريداً ، ويطعم به كريم المأكل ، وهو سيد ماله ينفقه طواعية بعكس البخيل الذى يضن بماله ويحبسه عن المحتاجين .

كان حاتم يعطي وهو مجهود ، ويتخلى عما فى يده وهو إليه أحوج ، لتأصل الكرم فيه طبعاً وسجية ، يقول مفتخراً :

ولو شهدتنا بالمزاج لأيقنت على ضرنا أنا كرام الضرائب [٧٨]

وهو لكرمه ونبله يأبى أن يطعم ضيفه فى وقت الجدب إلا ما يطعمه الضيفان فى وقت الرخاء ، يقول :

---

(٧٦) شرح المفضليات ٢ / ٦٥٦ .
(٧٧) ديوان شعر حاتم ٢٤٩ .
(٧٨) ديوان شعر حاتم ص١٩٥ .

ألم تعلمي أني إذا الضيف نابني وعز القرى أقرى السديف المسرهدا [٧٩]

فهذا هو العطاء الحق الذى يبين عن جود حقيقي ، يبذله صاحبه لتعلقه بمكارم الأخلاق ، ورغبته فى إتيان حميد الفعال ، لأنه بعمله هذا يكشف الضر عن الإنسان ويسد خلته ، ويضع عنه ما ينوء به كاهله ، ولما كان ذلك هو هدفه ومرماه فهو لا يرد أبداً من أتاه وإن بلغ به العسر أقصاه :

أماوى إني لا أقول لسائل إذا جاء يوما : حل فى مالنا نزر [٨٠]

ويلجأ حاتم إلى وسيلتين لجلب الضيفان الغرباء حتى يهتدوا إليه ، أولاهما : إيقاد النيران بمكـــان مرتفع حتى يراها الضيف فى ظلمة الليل فيأوى إليها ، وإيقاده للنار لم يكن مقصوراً علـــى زمن الرخاء بل أكثر ما كان وقت الجدب والمجاعة فى هذا الوقت يدفع حاتم بغلامه لإشعال النيران :

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا موقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر إن جلـــبت ضـــيفا فأنـــت حـــر [٨١]

عهـــد علـــى حاتم أن يطلق سراح العبد ، واقد النار ، إذا ما جلبت ناره ضيفا من أولئك التائهين فى الليل البارد مع هبوب الرياح العاتية ، فهم يحرصون على جلب الضيف ، ولا ينتظرون حتى يحل فيهم ، وهذا دليل على أن الكرم فيهم طبع وسجية .

أما الوسيلة الثانية لجلب الضيفان فكانت كلابه حيث تدل بنباحها إلى مكان حاتم فتهدي الضيفان إليه ، يقول :

نعم محل الضيف لو تعلمينه بليل إذا ما استشرفته النوابح [٨٢]

وهكذا سعى حاتم إلى إغاثة الملهوف ونجدة المعتر ، فقد أعطى دون أن يسأل لا ينتظر قصاده بل يبدأهم بالدعوة إليه ، تدعوهم ناره وكلابه ، وينفق ماله حين يشتد الزمان ويشح القوت ويضن الناس بما فى حوزتهم .

---

(٧٩) المصدر نفسه ٢١٨ .
(٨٠) ديوان شعر حاتم ص ٢١٨ .
(٨١) ديوان شعر حاتم ص ٢٥٩ .
(٨٢) ديوان شعر حاتم ص ٢٣٥ .

وهكذا كان العرب فى العصر الجاهلي لا يبخلون على الناس حين يشتد الزمان بهم ، خاصـــة فى الشتاء القارص ، كما كانوا يكرمون ضيوفهم الذين ينزلون بهم ، أو تدفعهم الصحراء إليهم فيقدمون لهم الطعام وينحرون لهم الإبل ، وهم فى سبيل ذلك كانوا يوقدون النار على الجبال ، أو يرسلون كلابهم المدربة ليهتدي إليهم التائهون والضالون فى المفازات فينزلون بهم ويجدون المأمن والملاذ والقلوب التى تفيض بالكرم .

والواقع أن الكرم لم يكن مقصوراً على الرجال فقط ، بل شاركتهم النساء فى هذه الخلة ، فقد ذكر صاحب الأمالي أن سفانة بنت حاتم كانت من أجود نساء العرب ، وكان أبـــوها يعطـــيها الصـــرفة مـــن الإبـــل فتهـــبها وتعطـــيها الـــناس فقـــال لهـــا أبـــوها يا بنية إن الفويين إذا اجتمعا فى المال أفنياه ، فإما أن أعطي وتمسكي ، وإما أن أمسك وتعطي ، فقالـــت والله لا أمســـك أبداً ، فقال : وأنا والله لا أمسك أبداً ، قالت : فلا نتجاور ، فقاسمها مالـــه وتباينا.

ويذكـــر ـــ أيضـــاً ـــ أن غنية بنت عمرو بن عبد القيس وهي أم حاتم كانت من أسخى النساء وأقراهن للضيف ، ولما رأى إخوتها ذلك منعوها مالها ، وظلوا على ذلك مدة حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صرمة من إبلها فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصرمة فخذيها فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلاً شيئاً ، ثم أنشأت ، تقول :

لعمرى لقد عضني الجوع عضة ... فآليت ألا أمنع الدهر جائعـــــاً

فقولا لهذا اللائمي اليـــوم أعفني ... فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعـــــا

فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أو عذل من كان مانعاً

ولا ما ترون الخلق إلا طبيعـــــة ... فكيف بتركي يا ابن أم الطبائعا [٨٣]

ونستنتج من خلال النماذج التى عرضناها قيمة الكرم ، ليس ظاهرة ترضى الكبرياء ، ولا وسيلة من وسائل التباهي الفارغ ، وإنما ظاهرة اجتماعية إيجابية أكد عليها العربي فى العصر الجاهلي وشاعت فى مجتمعه ، ومن ثم افتخر بها ، لأن الكرم فى البادية ضرورة اجتماعية ، تسد حاجة ملهوف ، وتنجد مستغيثاً إلى قضاء أمر ، وضرورة حياة تنقذ شريداً

---

(٨٣) الأمالي والذيل والتنبيه ٣ / ٢٧ .

تائهاً ضاقت به السبل ورمته على غير أمل بالعودة ، وهي عادة تبادلية فرضتها حياة الحل والترحال .

ذم البخل والعطف على المسكين :

ومن المظاهر الاجتماعية فى العصر الجاهلي التى لها صلة بظاهرة الكرم : ذم البخل وازدراء الممسكين الذين يضنون بمالهم وطعامهم ، فالبخل يجر على صاحبه المهانة والخزي ، خاصة الذين يبخلون فى وقت جهد فيه الناس ونال منهم الجوع ، وفى ذلك يقول حاتم :

إذا أزروا بالشوك أعجاز نخلهم ... رأيت عذاقى بينها ما تؤزر

فمن بينات اللؤم إحظار سدرة ... على جذعها يحمينها لا تغير

فلست بمؤنيه وأضياف أهلـه ... غراث إلى وقت يجد ويتمر [٨٤]

ففـى الوقت الذى يحيط فيه البخيل نخله بالشوك حتى لا يقترب منه أحد فى وقت الجدب ، فإن حاتما لا يسلك هذا المسلك لأن ذلك من فعل اللئام ، كما أن حاتما لا يؤخر جنى الثمار أو يحبسه مادام الناس جياعاً محتاجين ، خاصة وأن الزرع قد حان أكلـه .

والكريم وإن رزئ فى مالـه مرة بعد أخرى لا يحبس عطاءه خوفاً من ضيق قد يحيق به وتجنباً لشدة وقع فيها سلفاً ، وإنما ذلك هو اللئيم الشحيح البخيل ، يقول حاتم :

وما من لئيم عاله الدهر مـرة ... فيذكرها إلا استمال إلى البخل

فقدت الذى منا يرى البخل رفعة ... إذا حل ضيف لا يمر ولا يحلى

وللبخلة الأولى لمن كان باخـلا ... أعف وللإعطاء خير من البخل[٨٥]

وفى مجـال الفخر بنفسه يعير الأعشى خصومه بالبخل فى وقت الجدب والقحط والبرد ، ومع من ؟ مع جيرانهم ، يقول :

تبيتون فى المشتى ملأى بطونكم ... وجاراتكم غرثى يبتن خمائصاً [٨٦]

---

(٨٤) ديوان شعر حاتم ص٢٦٠ .
(٨٥) ديوان شعر حاتم ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٨٦) ديوان الأعشى ص١٩٣ .

وهذا ما فعله ـــ أيضاً ـــ عروة بن الورد حيث افتخر بكرمه وعير خصمه بالبخل ذاماً لـــه ، فقال :

وإني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد [٨٧]

ويقول ـــ أيضاً ـــ مفتخراً بكرمه ذاماً للبخل :

وقد علمت سليمى أن رأيي ورأى البخل مختلف شتيت

وأني لا يريني البخـــل رأى سواء إن عطشت وإن رويت [٨٨]

فســـليمى تعي جيداً ، أني لا أتفق والبخل فى رأي سواء فى ذلك إن كنت عطشاناً أم كنت رياناً .

وعمـــرو بن الأهتم السعدي يفتخر بجوده وإنفاقه للمال ويلوم زوجته التى تلومه مشيراً إلى أن البخل يضر بأخلاق الرجال فيقول :

ذريني فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق [٨٩]

والمثقب العبدي يجود بماله لاكتساب الحمد وتجنب الذم ، لأن البخل مذمة ، يقول :

فأجبنا بصواب قولهم من يجد يحمد ومن يبخل يذم [٩٠]

والسموأل بن عادياء يصرح أن أبناء قبيلته لا يوجد بينهم واحد يوصف بالبخل ، وهو يفتخر بذلك ويتيه زهواً ، لأن البخل مذمة ومنقصة وخزى وعار ، وقد خلت قبيلته من هذه النقيصة ، يقول :

فنحن كماء المزن ما فى نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل [٩١]

وذو الإصبع العدواني [٩٢] ليس بخيلاً ولا جباناً ، وهو يفتخر بذلك ، فيقول :

إن تزعما أنني كبرت فلم ألف بخيلاً نكسا ولا ورعا [٩٣]

---

(٨٧) موسوعة الشعر العربي ١٧٩ .

(٨٨) موسوعة الشعر العربي ١٧٦ .

(٨٩) شرح المفضليات ١ / ٤٥١ .

(٩٠) شرح المفضليات ٢ / ١٠٤٢ .

(٩١) الأمالي ١ / ٣٢٠ .

(٩٢) ذو الإصبع العدواني : اسمه حرثان بن محرث بن شباث ، وهو من بني الظرب ابن عمرو من بني يشكر بن عدوان ، وهو من قدماء الشعراء في الجاهلية ، وتوفى نحو عام ٢٥ق.هـ .
راجع : شرح المفضليات ٢/ ٥٧٣ ، والشعر والشعراء ٢/ ٧١٢.

(٩٣) شرح المفضليات ٢ / ٥٧٥ .

وهكذا حرص المجتمع الجاهلي على أن يتبرأ من البخل ، لأن البخل صفة مذمومة .

صون الأمانة :

ومن المظاهر الاجتماعية فى ذلك العصر ــ أيضاً ــ صون الأمانة ، وعدم التفريط فيها مهما كانت الأسباب والنتائج وحفظ السر وعدم إفشائه ، يفخر لبيد ابن ربيعة بحفظ قومه للأمانة وأنهم أوفى الأقوام لها ، فيقول :

وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها [٩٤]

أما الشنفرى [٩٥] فيفضل الوحوش على قومه الذين تركهم لأن من صفات هذه الوحوش حفظ السر ، يقول :

ولى دونكم أهلون: سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل [٩٦]

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بماجر يخذل [٩٧]

فالشاعر تنصل من أهله واستبدلهم بقوم آخرين هم سباع الصحراء ، وهؤلاء من خصائصهم وصفاتهم أنهم لا يذيعون السر بل ويحمون الجاني ويدافعون عنه ولا يخذلونه ، وهو فى كل ذلك يدافع عن كرامته ويحاول إثبات ذاته بعيداً عن قومه وآله .

ولعل صورة يوم " ذى قار " تشهد بالصورة المشرقة لتحمل القبيلة مسئولية صون الأمانة ، ولو كانت النتيجة ملاقاة جيوش الفرس الكثيرة ، وقد أصبح هذا اليوم مدعاة لفخر شعراء بكر وتغنيهم بذلك ، بل لفخر العرب جميعاً لأنه أول يوم تنتصر فيه العرب على العجم [٩٨] ، وفى هذا اليوم أقسمت بكر ألا تفرط فى تلك الدروع التى أودعها

---

(٩٤) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص١٦١ .

(٩٥) الشنفري : يمني الأصل من بني أوس من الأزد ، وهو شاعر صعلوك أكثر شعره في الحماسة والفخر ، له القصيدة التي تسمى لامية العرب .
راجع : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٠٥ ، وراجع : تاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ١/ ١٠٢ .

(٩٦) العملس : الذئب وكلب الصيد ، القاموس ٢ / ٢٤١ ، والأرقط : النمر القاموس ٢ / ٣٧٤ ، والعرفة : جمع العرفاء : الإبل والضباع ، وجمع الأعرف : الخيل والحيات ، القاموس ٣ / ١٧٩ .

(٩٧) الأمالي ٣ / ٢٢٧ ، وتاريخ الأدب العربي د. فروخ ١ / ١٠٣ .

(٩٨) الشعر الجاهلي د. محمد عبد المنعم خفاجي ص٩٦ .

الـــنعمان بن المنذر عندهم ، وأن أنجم السماء أقرب إلى كسرى من تلك الدروع ، يقول بعض شعراء ربيعة فى يوم ذى قار مفتخراً بذلك :

ألا هل أتاها أن جيشا عرمرما ... بأسفل ذى قار قد أبيدت كتائبه

فما حلقة النعمان يوم طلبتها ... بأقرب من نجم السماء تراقبه [٩٩]

أمـــا الأعشى فيقسم بآلهـــة العرب وبغيرها على الحفاظ على تلك الدروع مهما كان الثمن ، يقول :

حلفت بالملح والرماد وبالعز ... ى وباللات تسلم الحلقة

حتى يظل الهمام منجـــــدلا ... ويقرع النبل طرة الدرقة [١٠٠]

وهذا راشد بن شهاب بن ربيعة بن عامر [١٠١] يخاطب قيس بن مسعود بن همام الشيباني بشأن أدرع كانت عندهم حاثا إياه على صون الأمانة وردها ، وعدم الخيانة أو الغدر حتى لا يلحقه الذم والخزى هو وقومه ، لأن حفظ الأمانة من شيم الكرام ، يقول :

وكنت زمانا جار بيت وصاحبـــا ... ولكن قيسا فى مسامعه صمـــــم

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد ... أموف بأدرع ابن طيبة أم تـــــذم

بذم يغشى المرء خزيا ورهطـــــه ... لدى السرحة العشاء فى ظلها الأدم [١٠٢]

ومن صور حفظ الأمانة ــ أيضاً ــ ما صنعه السموأل ابن عادياء مع امرئ القيس ، فقد رفض تسليم دروعه لعدوه ، وفضل ذلك حتى وإن كان الثمن قتل ابنه ، يقول مفتخـــراً :

وفيت بذمة الكندي إني ... إذا ما ذم أقوام وفيت [١٠٣]

ويفخـــر علقمة بن عبدة [١٠٤] بحفظ صاحبته للسر وعدم إفشائه ، لأن السر أمانة ،

---

(٩٩) الأغاني ٢٣ / ٢٣٩ ، ط الدار التونسية .

(١٠٠) المصدر نفسه .

(١٠١) راشد بن شهاب بن عبدة بن عصم بن ربيعة بن عامر ـ لقيس بن مسعود بن قيس ابن خالد الشيباني . شاعر جاهلي .
راجع : الأعلام ٣/ ١٢ ، وشرح المفضليات ٢/ ١٠٧٩ .

(١٠٢) شرح المفضليات ٢ / ١٠٨٢ .

(١٠٣) الشعر الجاهلي د. خفاجي ص٣٧١ .

(١٠٤) علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة بن قيس بن تميم ، وهو المعروف بعلقمة الفحل ، من بني تميم . شاعر جاهلي ، وهو الذي احتكم مع امرئ القيس إلي امرأته أم جندب لتحكم بينهما .
راجع : الشعر والشعراء١/ ٢٢٤ ، وشرح المفضليات ٣/ ١٣٠٤.

فيقول :

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى إياب البعل حين يؤوب [١٠٥]

ويفخر ربيعة بن مقروم بحفظه لسر قومه وعدم إذاعته أو التفريط فيه ، يقول :

وأحفظ بالمغيبة أمر قومي فلا يسدى لدى ولا يضاع [١٠٦]

أما متمم بن نويرة [١٠٧] فيفخر بوفائه لأصدقائه ، وأنه لا يخون الأمانة ولا يضيعها ولا يقطع المعاهدة ، يقول معاتباً زوجته زنيبة :

صرمت زنيبة حبل من لا يقطع حبل الخليل ولا الأمانة يفجع [١٠٨]

وهكذا حرص الجاهليون على حفظ الأمانة ، وعدم إفشاء الأسرار ، وعدوا ذلك من الخلال الطيبة التى افتخروا بها.

إقامة الأحلاف :

من المظاهر الاجتماعية التى تعارف عليها العرب فى العصر الجاهلي وافتخروا بها ذلك النظام الذى عرف بـ " الأحلاف " حيث كانوا يغمسون أيديهم فى طيب أو دم ويقولون " الدم الدم والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شدّا وطول الليالي إلا مداً ، مابل البحر صوفه ، وأقام رضوى فى مكانه ، إن كان جبلهم رضوى ، وكل قوم يذكرون جبلهم ، والمشهور من جبالهم .. " . [١٠٩]

وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ودعوا الله أن يحرم من ينقض عهد الحلف من منافعها ، وربما دنوا من هذه النار حتى تكاد تحرقهم ، كما حدث لقبائل من مرة ابن عوف الذين تحالفوا عند نار فدنوا وعشواً بها حتى محشتهم ـ أحرقتهم ـ فسموا به

---

(١٠٥) شرح المفضليات ٣ / ١٣٠٦ .

(١٠٦) المصدر نفسه ٢ / ٦٨٦ .

(١٠٧) متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة اليربوعي التميمي أبو نهشل فحل من أشراف قومه ، وكان قصيرًا أعور أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك ، اشتهر في الجاهلية والإسلام .
راجع : الأعلام ٥/ ٢٧٤ ، ومعجم الشعراء ٤٣٢ ، وشرح المفضليات ١/ ١٣٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٣٤٤ .

(١٠٨) شرح المفضليات ١ / ١٣٧ .

(١٠٩) الحيوان للجاحظ ٤ / ٤٧٠ .

" المحاش " . [١١٠]

وكانـــت بعـــض القبائل تجتمع عند الكعبة ويتعاهدون أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الأحلاف . [١١١]

وأساس التحالف أن تحمي العشائر الكبيرة العشائر الضعيفة من العدوان الذى يقع عليها ، ويفرض على القبائل الكبيرة أن تنصر هذه القبائل الضعيفة التى تدخل معها فى حلف وتصبح للقبيلة كل الحقوق التى تكفلها القبيلة المتحالفة معها لأفرادها .

ومهمـــا يكـــن من دوافع هذه الأحلاف ونتائجها فقد لعبت دوراً كبيراً إيجابياً فى تكـــوين القبائل ، وجعلت القبيلة الضعيفة تنضم إلى القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها . [١١٢]

وبعض هذه الأحلاف كان غايتها دفع الظلم والشر أو نشر الأمن فى ربوع الجزيرة ، وخير مثال لذلك حلف الفضول بين بطون قريش ، وسببه أن رؤساء بطون قريش اجتمعوا فاتفقوا ألا يدعوا أحداً يظلم أحداً إلا نصروا المظلوم على الظالم ، وأخذوا لـــه حقه ، وقيل إن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قد شهد هذا الحلف قبل البعثة النبوية . [١١٣]

وحلـــف ذى المجاز الذى جمع فيه عمرو بن هند بكراً وتغلب وأصلح بينهما وأخذ منهما الوثائق والرهون ، وفيه يقول الحارث بن حلزة مذكراً بالعهد الذى كان منهم فى ذلك الموضع وتقديم الكفلاء فيه :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء [١١٤]

ولعل انتشار المحالفات كان إحساساً من القبيلة العربية بأنها بحاجة إلى الانفتاح على غيرها من القبائل ، وربما كان هذا إرهاصاً ببدء نهضة قوية أقرها الإسلام ـــ فيما بعد ـــ فى توحيد أمة استطاعت حمل رسالتـــه الخالدة إلى العالم .

وللحليف فى المجتمع الجاهلي حقوق وعليه واجبات ، ويفخر العربي بأن حليفه لا يضام ، يقول عبيد بن الأبرص مفتخراً بقومه الذين لا يغدرون بالحليف وينصرونه :

---

(١١٠) الحيوان ٤ / ٤٧١ .
(١١١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٤٨ .
(١١٢) العصر الجاهلي . د/ شوقي ضيف ص٥٨ وما بعدها .
(١١٣) السيرة النبوية ١ / ١٤٩ .
(١١٤) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص٢٣٢ .

إنا لعمرك لا يضا م حليفنا أبداً لدينا [١١٥]

ولا يجوز فض الحلف أو الغدر بالحليف مادام الحلف معقوداً .

وقد حرص المجتمع الجاهلي على المحافظة على قداسة الحلف ، وعدّ المساس به عاراً يلحق بالقوم ، بل لقد شبهه النابغة الذبياني بالفجور عندما قتلت بنو عبس نضلة الأسدي ، وقتلت بنو أسد منهم رجلين وكان بين أسد وذبيان حلف ، وأراد عيينة بن حصن الفزارى مساعدة بنى عبس وأن يخرج بنى أسد من حلف بنى ذبيان ، فقال النابغة محذراً :

إذا حاولت فى أسد فجـــوراً فإنى لست منك ولست منى

هم درعى التى استلأمت فيها إلى يوم النسار وهم مجنى [١١٦]

ودريد بن الصمة لا يظلم حليفه مادام لم يرتكب من الهفوات ما يجلب السخط والحقد ، يقول مفتخراً بذلك :

وأغفر للمولى هناةً تريبني فما ظلمه مالم ينلنى بمحقدى [١١٧]

ويفتخر الحادرة [١١٨] بأن قومه لا يغدرون بالحليف ، ولا يأتيه منهم ريبة ، فيقول موجهاً خطابه لمحبوبته سمية :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها فى مجمـــع

إنا نعف فلا نريب حليفنـــا ونكف شح نفوسنا فى المطمع [١١٩]

ويفتخر بشر بن أبى خازم الأسدي [١٢٠] بقومه الذين من صفاتهم : الوفاء لعقد الحليف ، والجود عند الشدة ، يقول :

---

(١١٥) ديوان عبيد بن الأبرص ص١٣٥ .

(١١٦) ديوان النابغة الذبياني ص١٢٧ .

(١١٧) ديوان عبيد بن الأبرص ص٥٥ .

(١١٨) الحادرة : قطبة بن أوس من بني ثعلبة بن سعد ، وهم بطن من بطون غطفان شاعر جاهلي .
راجع : تاريخ الأدب العربي : لبروكلمان ١/ ١١٠.

(١١٩) شرح المفضليات ١ / ١١٩ ، ١٢٠ .

(١٢٠) بشر بن أبي خازم الأسدي ، شاعر جاهلي قديم من بني أسد ، شهد حرب أسد وطئ وشهد الحلف بينهما ، وهو من شعراء الطبقة الثانية من فحول شعراء الجاهلية . راجع : الشعر والشعراء ١/ ٢٧٦ ، والبيان والتبيين ٢/ ١١ .

فمنهن الوفاء إذا عقدنا وأيسار إذا حب القتار [١٢١].

الوفاء والعفاف :

ومن المظاهر الاجتماعية فى العصر الجاهلي الوفاء والعفاف ، والوفاء والعفاف قد يكون للصديق أو للجار أو للحليف ، وقد سجل الشعر كل هذه المظاهر ، وقد مر سلفاً فى بعض النماذج التى عرضناها من قبل صوراً للوفاء ، كوفاء السموأل بن عادياء لامرئ القيس وعدم تسليم دروعه لعدوه وإيثاره ذلك على قتل ابنه فهذه صورة من صور الوفاء ، فالوفاء بالوعد من أهم الخلال التى يقدرونها ، فالعربي إذا قطع على نفسه وعداً وفى به ، ووفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا ـــ مثلاً ـــ بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه ، وقد عرضنا من قبل ـــ أيضاً ـــ لنماذج من حماية الجار ونصرته ، وللوفاء بعقد الحليف .

ومن صور الوفاء للصديق والمولي ـــ أيضاً ـــ :

قول مالك بن حريم الهمداني يحافظ على المولى ويأخذ له حقه من القوي المتعجرف ، ويعد العدة ويستعد للقتال حفاظاً على المولى حتى يمنع الظلم أن يلحقه مادام فى جواره ، يقول مفتخراً بذلك :

وآخذ للمولى إذا ضيم حقه من الأعيط الآبي إذا ما تمنعا

وإني لأعدى الخيل تقدع بالقنا حفاظاً على المولى الحريد ليمنعا [١٢٢]

فهم فى سبيل الوفاء بما قطعوا على أنفسهم من عهود لا يترددون فى تحمل المشاق والحروب من أجل تنفيذ ما تعهدوا به ، وسبة كبيرة فى جبين من ينقض العهد منهم أو يغدر بوعده حتى إنهم كانوا يرفعون له لواء فى أسواقهم كسوق " عكاظ " وفى مجامعهم ليعرفوه الناس ويلحقوا به عار الأبد ، وقد أشار إلى ذلك الحادرة فى قوله :

أسُمَيّ ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها فى مجمع (١٢٣)

ولذلك فهم يتمدحون بالوفاء ويذمون الغدر والخيانة ، هذا المسيب ابن علس يمدح القعقاع بن معبد بن زرارة لأنه يوفى بذمته ولا يخفر جاره بينما بعض القوم يأكل أمانته ،

---

(١٢١) شرح المفضليات ٣ / ١١٨٥ .
(١٢٢) الأصمعيات ص٦٤ ، والأعيط : الآبي الممتنع . القاموس المحيط ٢ / ٣٧٥.
(١٢٣) شرح المفضليات ١١٩/١ ، ١٢٠ .

يقول :

أنت الوفي فما تذم ، وبعضهم تودى بذمته عقاب ملاع [١٢٤]

ومن صور الوفاء للصديق قول حاتم الطائي مفتخراً :

رب بيضاء فرعها يتثنى قد دعتني لوصلها فأبيـــت

لم يكن بي تحرج غير أني كنت خدنا لزوجها فاستحيت(١٢٥)

فالشاعر أتيحت لـــه فرصة مضاجعة هذه الجميلة البيضاء التى تصدت لـــه ودعته لنفسها ومهدت له السبيل ، لكنه انصرف عنها وأبى أن يستجيب لعرضها ، بل يستحي أن يدير الأمر بفكره أليس صديقاً لزوجها ؟ أيخون صديقه ؟ كلا .

فحاتم يفاخر بوفائه لأصدقائه ، وبعفته ، فهذه المرأة زوجها صديق له وخليل ، وهو لا يســـتطيع خيانة هذه العلاقة السامية النبيلة ، ولابد أن يكون حارساً لا خائناً ومخادعاً ، وهذا ما منعه من أن يقتنص فرصة عرض المرأة عليه أن ينال منها ما يشاء ، وهو لا يمنعه شئ سوى الصداقة .

ومن صور وفائه للصديق ـــ أيضاً ـــ قولـــه :

الله يعلم أني ذو محافظة مالم يخني خليلي يبتغي بـــــدلاً

فإن تبدل ألفاني أخائفة عف الخليقة لا نكسا ولا وكلا [١٢٦]

فهو يفتخر بأنه لا يجفو صديقه ولن يقاطعه حتى إن جافاه ذلك الصديق ، فهو يحافظ على ذلك الصديق ، ولا يناله بشئ يؤذيه ، مع أن الصديق الغادر قد أعطاه مبرراً ليعاديه ، وهو إن فعل لا يلومنه أحد ، لأنه يرد خيانة بدرت من صديق ، ولم يكن هو البادئ فيها ومع ذلك لم يفعل وفاء لعهد الصداقة الذى كان بينهما .

وإذا كـــان هذا هو موقفه مع الأصدقاء ، فإن مواقفه فى الوفاء لجيرانـــه لا تقل عن ذلك ، يقول :

إذا مابت أختل عرس جاري ليخفيني الظلام فلا خفيت

---

(١٢٤) شرح المفضليات ١ / ٢٠٤ .
(١٢٥) ديوان شعر حاتم ٢٤٣ .
(١٢٦) ديوان شعر حاتم ١٩٤ .

أأفضح جارتي وأخون جاري معـــاذ الله أفعـــل مـــا حيـــيت [١٢٧]

إنه يفاخر بخلق الأبى الذى لا يترك العنان لأهوائه فهو يأبى بل ويستنكر أن يهجم على زوجة جاره ، ولا يراعي للجوار حرمة ، لذا فهو يستنكر فى استفهام : أأفضح جاريّ ؟ فهو يرى فى هذا الفعل جناية كبرى لأنه خذل جاره الذى اعتمد عليه فى حراسة بيته وأهلـــه ، وهو لا يتصور أن يحدث ذلك منه أبداً وفاء لجيرانـــه وأصدقائه ، وتلك صفة تجعله عفيفاً لا يهجم على الأعراض ولا يهتك فيها أستار بيت جاره .

والعفة صفة حميدة يحمدها الجاهلي ـــ خاصة ـــ فى المرأة وهاهو ذا الشنفرى يفخر بعفة أميمة زوجتـــه ، فيقول :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت

أميمة لا يخزى نثاها حليلهـــا إذا ذكر النسوان عفت وجلت [١٢٨]

أما ذو الأصبع العدواني فيتعفف عن تخبيب النساء وإفسادهن إذا بعدن عن حلائلهن ، أو ناموا عنهن ، ويفخر بوفائه للصديق فهو لا يغدر به ولا يخونه ، يقول

ولا أروم الفتاة رؤيتهـــا إن نام عنها الخليل أو شسعا

أوْ دَعَتَانى فلم أجب ولقد يأمن منى خليلي الفجعـــا

آبى فلا أقرب الخباء إذا ماربه بعد هدأة هجعا [١٢٩]

ويفتخر المرقش الأكبر بوفاء قومه وعفتهم وكرمهم ـــ أيضاً ـــ فيقول :

لكننا قوم خلائقنا تزينها عفافة وكرم [١٣٠]

ودريد بن الصمة يفخر بعفته وجوده أيضاً ، فيقول :

وإنى لعف عن مطاعم تتقى ومكرم نفسى عن دنيات مآكل

وما إن كسبت المال إلا لبذله لطارق ليل أو لعان مكبل [١٣١]

---

(١٢٧) ديوان شعر حاتم ٢١٠ ، ٢١١ .

(١٢٨) شرح المفضليات ١ / ٣٨١ وما بعدها .

(١٢٩) شرح المفضليات ٢ / ٥٨٤ . والضمير فى دعتانى يعود إلى الجارة والكنة . وأصل آبى : أأبى .

(١٣٠) شرح المفضليات ٢ / ٨٧٤ .

(١٣١) ديوان دريد بن الصمة ص١٥٣ .

أما عنترة بن شداد فيفتخر بعفته ووفائه لجاراته بغض الطرف عنهن ، فيقول :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها [١٣٢]

ويقول ـــ أيضاً ـــ مفتخراً بعفته :

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فأرى مغانم لو أشاء حويتها فيصدني عنها الحيا وتكرمي [١٣٣]

فهو متاح لـــه أن يأخذ من الغنائم ما يشاء ولكنه يمتنع عنها حياء وتعففاً ، ليس حياءً من الناس ، وإنما حياءً من نفسه التي تواجهه بالحساب عند أخذ الغنائم ، تعيره لأنه خرج من أجل الغنائم ، وهو لم يكن كذلك ، فمن أجل الموقف الحسابي الذى تحاسبه عليه نفسه خجل من أن يكون متهما أمام نفسه فعف وامتنع ، وهذه قمة العفاف .

الإباء والأنفة :

ومـــن المظاهـــر الاجتماعية فى ذلك العصر التى افتخر الجاهليون بها الإباء والأنفة فكـــان العربي يسترخص الحياة فى سبيل دفع المهانة والذل ، يحارب الخصم ويقاتله قتالاً لا هوادة فيه وهو يعلم تفوق خصمه عليه ، لدفع الذل الذى يحاول أن يجعله يعيش فيه ، فلم يكن يسوءهم شئ مثل الهوان الذى يعني الذل لهم ولقبائلهم ، يقول المتلمس الضبعي [١٣٤] :

إن الهوان حمار الأهل يعرفـــه والحر ينكره والرسلة الأجـــد

ولن يقيم على خسف يراد بـــه إلا الأذلان : عير الأهل والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى لـــه أحد [١٣٥]

وهذا ربيعة بن مقروم الضبي يقول مفتخراً برفض قومه الذل والهوان :

---

(١٣٢) ديوان عنترة ٢٤١ .

(١٣٣) ديوان عنترة ٢٠٧ .

(١٣٤) المتلمس الضبعي : هو جرير بن عبدالمسيح الضبعي ، خال طرفة بن العبد، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة .
راجع : الشعر والشعراء ١/ ١٨٥ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمـــان ١/ ٩٣ وما بعدها .

(١٣٥) ديوان شعر المتلمس الضبعي ص٢٠٣ ـ ٢١١ .

ودار هوان أنفنا المقام بها فحللنا محلاً كريماً [١٣٦]

وعـــبد الله بن عنمة [١٣٧] يفخر بقومه الذين يأنفون من الذل والهوان ، وهم يرضون بشرب السم ولا يرضون بالدنية ، يقول مخاطباً خصومـــه :

فإن أبيتم فإنا معشر أنف لا نطعم الذل إن السم مشروب [١٣٨]

أى إن أبيتم فإنا لا نقبل الضيم ونؤثر عليه السم إن لم نجد عنه مندوحة .

ويقول عنترة فى المعنى نفسه :

لا تسقني ماء الحياة بذلـــة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل [١٣٩]

وعمرو بن كلثوم يصرخ مفتخراً برفض قومه للذل والهوان قائلاً :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا [١٤٠]

وهـــذا الشنفرى الشاعر المتنقل فى الصحراء بماذا يفاخر بعد أن تنكر لـــه الأهل وضاقت به سبل العيش ، وتعذرت نصرة الصديق ، ماذا يكون من شأن الكريم وقد حل به الأذى ؟ أليست الأرض الواسعة ، ميدانا لا يحد ، ومحال أن يجد فيها ضيقاً إنسان آلى على نفسه أن لا يتقبل الضيم وخيانة الإخوان وفى نفسه من المطامح ومن الكبرياء ما فيها ، يقول فى ذلك :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل [١٤١]

فالشـــاعر هجر قومه رافضا للذل والهوان واعتمد على نفسه ، لأن الأرض واسعة لا تضيق به ولا بغيره من الأحرار ، وهو يفاخر بذلك فى عزة وكبرياء لأن نفسه الأبية لا تقبل الضيم وخيانة الخلان ، لذا فسوف يجد بعيداً عن قومه الأمن والطمأنينة والحياة الحرة الكريمة

---

(١٣٦) شرح المفضليات ٢ / ٦٨٢ .

(١٣٧) عبدالله بن عنمة الضبي : أحد شعراء المفضليات . وهو شاعر جاهلي مخضرم أسلم وشهد القادسية .
راجع : شرح المفضليات ٣/ ١٢٧٦ ، والبيان والتبيين ١/ ٣٨١ .

(١٣٨) شرح المفضليات ٣ / ١٢٨٦ .

(١٣٩) ديوان عنترة ص١٨٠ .

(١٤٠) شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٨٩ .

(١٤١) الأمالي ٣ / ٢٢٧ ، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ١ / ١٠٣ .

معتمداً على نفسه .

لكن هذه الحياة الحرة الكريمة التى سيحياها مع من ستكون ؟ سنكون مع الحيوانات المفترسة ــ كما أشرنا سلفاً ــ يقول :

ولى دونكم أهلون : سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بمحجر يخذل [١٤٢]

سباع الصحارى هم أهله وأصحابه : يبادلونــه الخير بمثله ، ومحال أن يذيعوا سر أليف حميم ، أو أن يخذلوا صديقاً زلت به القدم فى متاهات القدر ، وهو فى كل ذلك يدافع عن كرامته رافضا لقبول الذل والهوان بين قومــه وآلــه .

وانطلاقاً من رفضه للذل والمهانة وطلبه للحرية والكرامة فإنه يحكم السيطرة على نفسه ، يقول :

أديم مطال الجوع حتى أميتــه وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له عليّ من الطول امرؤ متطــول

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لدى ومأكــل

ولكن نفسا حرة لا تقيم بــى على الضيم إلا ريثما أتحول [١٤٣]

فالشاعر يفخر بصفات يتمتع بها وربما لا يقدر عليها غيره وهو بصفة عامة يقدم لنا نفسه على أنه شديد الجلد ، قوي الصبر على نفسه حتى إنه يوردها الموارد التى يأتيه منها العطب ومع ذلك لا يخشاها .

ففي البيت الأول يعطينا صورة واضحة عن نفسه وانظر كيف يعلل الجوع إذا بدا يتحــرك فى داخله ، فإنه يماطله ويمنيه بأمان لا تتحقق ، حتى يستكين قليلاً ذلك الجوع أملاً فــيما وعده به ثم يتركه لينساه ، وبذلك يتخلص من الجوع كنوع من التضليل والأمنيات التى لن تتحقق .

إنه يصبر على نفسه تأمينا لحريته وكبريائه حتى لا يقع تحت طائلة الحاجة التى يسد بها رمقه ، وبالتالي يعرض نفسه للذل والهوان ، فهو وازن بين الحياة متخماً مع فقدان العزة

---

(١٤٢) الأمالي ٣ / ٢٢٧ ، وتاريخ الأدب العرب د. عمر فروخ ١ / ١٠٣ .

(١٤٣) الأمالي ٣ / ٢٢٧ ، وتاريخ الأدب العرب د. عمر فروخ ١ / ١٠٤ .

والكرامة والحياة محتاجاً مع الكرامة والعزة فاختار الثانية .

وفى البيت الثاني يفخر ويزهو بقسوته على نفسه وإرغامها على الصبر والتجمل ، فهو فى البيت الأول علل الجوع وخدعه حتى سكن ، ولكن هذا السكون لا يلبث أن يتمرد ، وينهش الجوع فيه مرة أخرى فلا يرى أمامه إلا أن يستف التراب ، يسد به جوعته ، فهذا أفضل من أن يعرض نفسه للذل ويمد يده إلى غيره ، ومن ثم يمكن غيره من السيطرة عليه ويجعله فى كل لحظة يعايره بما فعل ، تلك قسوة ولكنها فى سبيل العزة والكرامة ، ومن ثم تهون كل المحن ، وليت الناس يتدربون على مخالفة ـــ ليس الجوع فقط ـــ بل كل الاحتياجات حتى يحرروا أنفسهم من ربقة الذل والهوان .

وأعتقد أن الشاعر اختار أقسى المواقف وهو الجوع ، فالذى يصبر على الجوع ، يستطيع أن يصبر على كل شئ غيره وربما يلغيه من حياته حتى تتاح له الأموال التى يأتي فيها بكل ما يشاء .

وفى البيت الثالث والرابع يعلن الشاعر أنه لولا خشيته من الذل والتعيير لكان بمقدوره أن يوفر لنفسه ما تحتاجه من المطاعم والمشارب ، وكأنه يومئ إلى الطرق الأخرى التى يرفضها الحر فى تحصيل المال ، ومن ثم فهو يمكنه من الطرق المعوجة أن يوفر كل شئ ولم يمد يده ولكنه يرفض ذلك ألبتة حفاظاً على عزته وإبائه وكرامته ، لأن نفسه الأبية ترفض الضيم ولا تقبله حتى وإن كان من أهله وذويه .

فالشاعر فى هذه الأبيات يعلن فى إصرار عن تشبثه بالعزة والكرامة ، وأنه على استعداد للصبر المرير على الجوع والعطش إلى أن تتغير ظروفه وتتحول إلى الأحسن حتى لا يقع تحت بطش الذل والمهانة ، وهذه صفة إنسانية رائعة ليتها تشيع وتنتشر حتى تبرأ مجتمعاتنا من أولئك الذين يركنون إلى الكدية بل واتخذوها حرفة لهم ، ناسين أن ديننا الحنيف مدح الفقراء المتعففين بما وصفهم به المولى عز وجل فى القرآن الكريم حيث يقول :

﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ . (١٤٤)

ففخر الشنفرى هنا يمتاز بالكبرياء والشعور بالكرامة ، إنه فخر اجتماعي له صلة مباشرة بالخلقية الإنسانية ، يحرك المشاعر ويفجرها على أثمن ما فى الإنسان ، كرامته ووجوده الكريم .

---

(١٤٤) سورة البقرة بعض آية ٢٧٣ .

وذو الإصبع العدواني يفخر ــ أيضاً ــ برفض الذل والهوان ، فيقول :

إن أبي أبي ذو محافظـــــــة وابن أبي أبي من أبيـــــــين

عف يؤوس:إذا ما خفت من بلد هونا فلست بوقاف على الهون [١٤٥]

فالشاعر يفخر فى البيت الأول بأنه يرفض الذل والهوان ويحافظ على كرامته وعزته ولا يصبر على الضيم أبداً ، وهو أراد أن يعمق هذه الصفة فيه فجعلها موروثة فى آبائه وأجداده ، فتكرار كلمة " أبى " توحي بتمكن الصفة فيه ، فهو عريق ، ولا أظن أنه يفخر بآبائه وأجداده على عادة الشعراء الجاهليين ، فهو إن فعل يكون قد اتخذهم وسيلة إلى وجود هذه الصفة فى آبائه وأجداده متنقلة فى الأصلاب حتى وصلت إليه كاملة مهذبة .

وفى البـــيت الثاني يفخر بصفة حميدة أخرى وهي العفاف ، أى الترفع عن الدنايا وممارســـة الـــرذائل ، ثم يشير إلى أنه إذا ما وجد ضيماً أو أحس بأن هناك أذى سينالـــه فى مكان ما ، فإنه يترك هذا المكان وينأى بعيداً عنه حتى لا يعيش على الهون والهوان .

والواقـــع أن العربي بأنفته وعزته وكبريائه وشهامته وفروسيته أنف من قبول الذل والهـــوان أو الرضوخ للضيم ، وما الحروب التى تأججت نارها فى الجزيرة العربية إلا صورة طبعية لرفض العربي الذل والضيم ، فقد كانت القبائل تحتكم إلى سيوفها ورماحها لترد الظلم والضيم والهوان .

صيانة المرأة والحفاظ عليها :

ومن المظاهر الاجتماعية فى فخر الجاهلية الحفاظ على المرأة وصونها والدفاع عنها ، وقد تغنى الجاهليون بالحفاظ على الشرف والعرض ، ونشبت حروب كثيرة بسبب محاولـــة اعتداء قوم على امرأة من قبيلة أخرى ، بل بسبب إهانة تلحق بامرأة كما فى بعض حروب الفجار ، ولعل ذلك قد حملهم على أخذ نسائهم معهم فى الحروب حتى لا تتخلف فى الحي ، فـــيأتي قـــوم ويسبون النساء ، وذلك مما يجلب العار للقبيلة ، لذلك افتخر شعراؤهم بحماية النساء وصون العرض والشرف .

يقول سلامة بن جندل التميمي :

بأنا منعنا بالفروق نساءنا ونحن قتلنا من أتانا بمازق [١٤٦]

---

(١٤٥) شرح المفضليات ٢ / ٥٩٧ ، ٦٠٠ ، والشعر والشعراء ٢ / ٧١٢ .

(١٤٦) ديوان سلامة بن جندل ص١٥٩ .

ويفاخـــر عمـــرو بن حوط الرياحي بقومه الذين حافظوا على النساء ودافعوا عنهن ، ويعرض بأعدائه الذين قصروا فى ذلك وتخاذلوا ، يقول :

فما قوم كقومى حين يخشى على الخود المخدرة الفضاح
أذب عن الحفائظ فى معد إذا ما جدّ بالقوم النطاح [١٤٧]

وقوم ربيعة بن مقروم الضبي يمنعون حريمهم ويذودون عنهن ، يقول مفتخراً :

طوال الرماح غداة الصباح ذوو نجدة يمنعون الحريما [١٤٨]

وحاتم الطائي يفخر بالمحافظة على جاراته وصلة رحمه ، يقول :

لا نطرق الجارات من بعد هجعة من الليل إلا بالهدية تحمل [١٤٩]

وحفاظاً على سمعة جارته فهو لا يزورها إلا فى وجود بعلها حتى لا تتعرض لسوء ، يقول :

وما تشتكيني جارتي غير أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها [١٥٠]

وكان من عوامل الثبات والنصر فى يوم ذى قار أن بعض القادة أشار ـــ حينما رأى قوة الفرس ـــ على القوم بالانسحاب إلى الصحراء ، المعقل الطبيعي لهم ، ولكن زعيماً آخر يسمى حنظلة بن ثعلبة مال إلى الإبل التى تحمل حريمهم فقطع وضينها ووقعت نساؤهم على الأرض ، وقال : ليقاتل كل منكم عن حريمه ، وقالت امرأة من عجل :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

والـــتحم الفريقان فى معركة حامية دارت الدائرة فيها على جنود كسرى وانتصر العرب انتصاراً مؤزراً " . [١٥١]

وأحـــيانا كانوا يصطحبون نساءهم فى الحروب لسقى الماء وتضميد الجراح وبعث الحمية فى النفوس ، يقول عمرو ابن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

---

(١٤٧) النقائض لأبى عبيدة البصري ١ / ٦٩ .
(١٤٨) شرح المفضليات ٢ / ٦٧٧ .
(١٤٩) ديوان شعر حاتم ص٢١٩ .
(١٥٠) ديوان شعر حاتم ص٢٣٢ .
(١٥١) الشعر الجاهلي د. خفاجي ص٩٨ .

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا [١٥٢]

كما حرص الجاهلي على صون عرضه والحفاظ على شرفه ، يقول المتنخل الهذلي :

وأحفظ منصبي وأصون عرضي وبعض القوم ليس بذى حياط [١٥٣]

فمن صفاته التى يفخر بها : صون العرض وحفظ المنصب بينما لا يتورع الآخرون عن ذل أنفسهم .

وهذا المعنى يؤكده ـ أيضاً ـ عبيد بن الأبرص ، حيث يقول مفتخراً :

وأكرم والدي وأصون عرضي وأكره أن أعد من الحراص [١٥٤]

ويفاخر عنترة بن شداد بكرامته وعدم التفريط فيها ووفور عقله حتى فى حالة السكر ، فيقول :

فإذا شربت فإنني مستهلك مالى وعرضي وافر لم يكلم [١٥٥]

فهو إذا شرب الخمر فإنما يهلك بجوده ماله فقط ، لكنه لا يشين عرضه ، فعرضه وافر لا يمس بعيب .

أما المثقب العبدي فيرصد المال وقاية لعرضه أن يوصم بشئ مشين ، يقول مفتخراً :

أجعل المال لعرضي جنة إن خير المال ما أدى الذمم [١٥٦]

وفى هذا المعنى يقول ـ أيضاً ـ ذو الأصبع العدواني مفتخراً :

أجعل مالي دون الدنا غرضا وماوهى م الأمور فانصدعا [١٥٧]

فهو يجعل ماله وقاية لعرضه ، ويصلح برأيه ما وهي من أمور عشيرته ، وأصل م الأمور : من الأمور .

---

(١٥٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٨٥ ، ١٨٦ .
(١٥٣) موسوعة الشعر العربي ٦٣٢ .
(١٥٤) ديوان عبيد بن الأبرص ص٧٨ .
(١٥٥) ديوان عنترة ص٢٤ .
(١٥٦) شرح المفضليات ٢ / ١٠٤١ .
(١٥٧) شرح المفضليات ٢ / ٥٧٥ .

صلة الرحم :

مـــن المظاهر الاجتماعية فى فخر الجاهلية صلة الرحم ، وهي صفة حميدة فخر بها الجاهلي وتغنى بها ـــ أيضاً ـــ فى شعره يقول عوف بن عطية التميمي مفتخراً بجوده ، وصلة رحمه لأقربائه ، ومن بينه وبينهم عهد :

أجود على الأباعد باجتداء ولم أحرم ذوى قربى وإصر [١٥٨]

وحـــاتم الطائي يطلب من " نوار " زوجه ألا تعاتبه فى إنفاق المال صلة لرحمه ، ويفتخر بذلك فيقول : .

لا تعذليني على مال وصلت به رحما وخير سبيل المال ما وصلا [١٥٩]

وعنترة بن شداد يفتخر بصلة رحمه وصيانة عرضه ـــ أيضاً ـــ وعرض رحمه ، فيقول :

أغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزى فى الجيش لا أغشاها [١٦٠]

فهـــو يقوم بزيارتها واصلاً لرحمها مادام حليلها معها ، فإن خرج غازياً لم يزرها ليحافظ عليها ، وصيانة لعرضه وعرضها .

أما عوف بن الأحوص الكلابي فيتفاخر عن اساءة بن العم حفاظاً على صلة الرحم ، يقول :

وإن لتراك الضغينة قد أرى ثراها من المولى فلا استشيرها [١٦١]

وقريب من هذا المعنى قول حاتم الطائي فى الحفاظ على صلة رحمه من أبناء عمومتـــه :

ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهوداً وقد أودى بإخوته الدهـــر
غنينا زمانا بالتصعلك والغـــنى كما الدهر فى أيامه العسر واليسر
فما زادنا بأوا على ذى قرابـــة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر [١٦٢]

ويـــرفع حـــاتم أن يعتدي على ابن عم لـــه إذا نزل محلتهم وإن بدر منه ما يسوء وذلك حفاظاً على صلة الرحم ، يقول :

---

(١٥٨) شرح المفضليات ٣ / ١١٣٦ .
(١٥٩) ديوان شعر حاتم ص١٩٢ .
(١٦٠) ديوان عنترة ٢٤١ .
(١٦١) شرح المفضليات ٢ / ٦٥٦ .
(١٦٢) ديوان شعر حاتم ص٢٠٢ .

ولا يلطم ابن العم وسط بيوتنا ولا نتصبي عرسه حين يغفل [١٦٣]

وهذا ما يؤكده أوس بن حجر[١٦٤] حيث يقول فى مجال الفخر بنفسه :

ولا أعتب ابن العم إن كان ظالما وأغفر منه الجهل إن كان أجهلا

وإن قال لى ماذا ترى ؟ يستشيرني يجدني ابن عمي مخلط الأمر مزيلا[١٦٥]

فالشاعر يفخر بأنه يبقى على صلة الرحم حتى إن ساءه ابن عمه فإنه يبقى لـه المودة والحب ، فإذا رأى من ابن عمه جهلاً يدفعه إلى الإساءة إليه فإنه لا يلتفت إلى جهله هذا حتى يبقى على وصالـه ، فإذا فعل ابن عمه ذلك فهو لا يعاتبه ، لا استخفافاً به ، ولكن مخافة أن يزلق العتاب بينهما إلى المحظور فيحدث التصادم بينهما ، وتزداد الفجوة ، ويغلظ الجفاء ، ويستعصى بعد ذلك عليه الإصلاح ، ولذلك فهو رأى حفاظاً على العلاقات الطيبة التى يجب أن تسـود ذوى الـرحم أنه إن عابه ابن عمه عف عنه ، حتى وإن بدت فى أخلاقه الغلظة والجفوة فإنه أيضاً سيتقرب منه ليحقق الترابط بين أفراد القبيلة .

وفى البيت الثاني يفتخر بأن صفحه عن ابن عمه أهله لأن يكون موضع سره ومناط استشارته فهو يمحص له الرأي السديد إذا استشاره ويقدم له النصيحة التى تخرجه من مأزقه وورطـته وبهذا كلـه اكتسب عنده وعند القبيلة مكانتـه ، ولا غرو فهو المتمسك بصلة الرحم وبرباط المودة مع أبناء عمومتـه .

الموقف من الخمر :

ومـن المظاهـر الاجتماعية فى فخر الجاهلية ذلك الموقف الخاص من الخمر ، ففي الـوقت الذى افتخر فيه بعض الشعراء بمعاقرة الخمر ووصف مجالسها ، فقد ذكرت بعض المصـادر القديمة نفراً من الجاهليين حرموا الخمر على أنفسهم ، ومنهم : عامر بن الظرب العـدواني ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن أمية وعفيف بن معد يكرب ، وسويد بن عدى الطائي ، والعباس بن مرداس السلمي ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وزيد بن عمرو

---

(١٦٣) ديوان شعر حاتم ص٢١٩ .

(١٦٤) أوس بن حجر بن عتاب من بني نمير بن تميم ، تزوج أم زهير بن أبي سلمى وعاش أوس دهرا طويلا ثم مات قبيل ظهور الإسلام ، وهو من فحول الشعراء وكان زهير راوية له .راجع : الشعر والشعراء ١/ ٢٠٨ ، وتاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ١ / ١٧٠ .

(١٦٥) الشعر والشعراء ١ / ٢١٤ ، وتاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ١ / ١٧٢.

بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وعبيد بن الأبرص ، وأبو ذر الغفارى ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والنابغة الجعدي ، وحاتم الطائي ، وغيرهم .[١٦٦]

ولم يكـــن تحريم هؤلاء الخمر محض صدفة ، أو لأن دينا أو عقيدة أمراهما بذلك ، ولكن ربما كان للتجربة سبب فى ذلك ، يحدثنا صاحب الأغاني أن قيـــس ابن عاصم سكر ذات لـــيلة ، قبل أن يسلم ، فغمز عنكة ابنته ، وفى رواية أخرى أخته ، فهربت منه ، فلما صـــحا مـــن الخمر سئل عما صنع الليلة الماضية ، فلم يدر بماذا يخبرهم ، فأخبروه بما فعل ، فحرم الخمر على نفسه ، وقال فى ذلك شعرا يوضح ما تفعله الخمر بصاحبها حيث تذهب بعقله ، وتفضح شاربيها ، وتحيل الرجل الحليم سفيهاً ، يقول مفتخراً بتركه شرب الخمر :

وجدت الخمر جامحة وفيها ... خصال تفضح الرجل الكريما

فلا والله أشربها حيـــاتـــي ... ولا أدعو لها أبدا نديمـــــاً

ولا أعطى بها ثمنا حياتـــي ... ولا أشفى بها أبداً سقيمـــاً

فإن الخمر تفضح شاربيهـــا ... وتجشمهم بها أمراً عظيمـــا

إذا دارت بمجلسها تعلـــت ... طوالع تسفه الرجل الحليما[١٦٧]

ويذكر صاحب الأغاني فى رواية أخرى أن قيس بن عاصم من أوائل من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وهو القائل فيها مفتخراً :

فوالله لا أحسو مدى الدهر خمرة ... ولا شربة تزرى بذى اللب والفخر

فكيف أذوق الخمر والخمر لم تزل ... بصاحبها حتى تكسع فى الغـــدر

وصارت به الأمثال تضرب بعدما ... يكون عميد القوم فى السر والجهر[١٦٨]

ثم يخاطب شارب الخمر محذراً وناصحاً بتركها ، لأن شاربها لا يدري ما يضره وما ينفعه ، يقول :

فيا شارب الصهباء دعها لأهلها ... الغواة وسلم للجسيم من الأمر

---

(١٦٦) راجع الأمالي ١ / ٢٤٨ ، ونهاية الأرب للنويري ٤ / ٨٨ - ٨٩ .
(١٦٧) الأغاني ١٤ / ٤٩٥٧ طبعة دار الشعب .
(١٦٨) الأغاني ١٤ / ٤٩٥٨ طبعة دار الشعب .

فإنك لا تدري إذا ما شربتهـــا وأكثرت منها ما تريش وما تبرى[١٦٩]

وممن حرم الخمر فى الجاهلية تكرماً وصيانة لنفسه وافتخر بذلك عامـــــر ابن الظرب [١٧٠]، وفيها يقول :

ذهابة بعقول القوم والمـــال سآلة للفتى ما ليس فى يـــده

حتى يفرق ترب القبر أوصالي أقسمت بالله أسقيها وأشربها

مورثة القوم أضغانًا بلا إحن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالي[١٧١]

وهذا عفيف بن معد يكرب[١٧٢] يفتخر بتحريم الخمر على نفسه فيقول :

وقائلة هلم إلى التصابـــي فقلت عففت عما تعلمينا

وودعت القداح وقد أراني بها فى الدهر مشعوفا رهينا

وحرمت الخمور على حتى أكون بقعر ملحود دفينا [١٧٣]

وسويد بن عدي الطائي [١٧٤] يفتخر أيضاً بتحريم الخمر، فيقول :

بها سدكاً وإن كانت حراما [١٧٥] وحرمت الخمور وقد أراني

ولا يعني ذلك أن تحريم الخمر كان سمة عامة فى المجتمع الجاهلي ، فقد افتخر كثير من شعراء الجاهلية بشرب الخمر ، كطرفة بن العبد حيث يقول :

ومازال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدى[١٧٦]

بل وجعلها طرفة إحدى ثلاث خلال يتصف بها ، حيث يقول :

---

(١٦٩) الأغاني ١٤ / ٤٩٥٨ طبعة دار الشعب .

(١٧٠) عامر بن الظرب العدواني : أحد حكام العرب في الجاهلية وكان خطيبا رئيسا ، قالوا عنه : عمر مائتى سنة . راجع : البيان والتبيين ١/ ٢٩٤ .

(١٧١) الأمالي ١ / ٢٤٨ .

(١٧٢) عفيف بن معد يكرب عم الأشعث بن قيس ، شاعر جاهلي وهو ممن حرم الخمر في الجاهلية .راجع : الأمالي ١/ ٢٤٩ .

(١٧٣) الأمالي ١ / ٢٤٩ .

(١٧٤) سويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي ، من شعراء الجاهلية ، وهو ممن حرم الخمر في الجاهلية ، ويقال إنه أدرك الإسلام .
راجع : الأمالي ١/ ٢٤٩ .

(١٧٥) الأمالي ١ / ٢٤٩ ، والسدك : المولع بالشئ . القاموس ٣ / ٣١٦ .

(١٧٦) ديوان طرفة بن العبد ص٢٥ ، وشرح المعلقات السبع للزوزنى ٨٢ ، ٨٣ .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجداك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ماتعل بالماء تزبد [١٧٧]

فهو محب لثلاث خصال ، منها أنه يبكر بشرب الخمر المعتقة قبل انتباه العواذل .

لكـــن يمكن القول بأن هذا التيار الذى تعاطى الخمر وتفاخر بمعاقرته ظهر إلى جواره فى المجـــتمع الجاهلي تيار آخر مناهض لـــه ومخالف يدعو إلى نبذ الخمر والابتعاد عنها وهجرها صيانة للنفس وحفظاً لها ، لذا عددنا هذا الاتجاه مظهراً من المظاهر الاجتماعية التى تفاخر بها شعراء ذلك العصر .

وبعد : فتلك هي أهم المظاهر الاجتماعية التى استقيناها من فخر الجاهلية وهذا لا يعني أن هذه المظاهر هي كل ما كان يتمتع به العرب فى العصر الجاهلي من خلال وسجايا ، فهـــناك الكثير من الصفات الحميدة والخصال الكريمة التى تمتع بها العرب فى ذلك العصر ، وقد سجلها الشعر تسجيلاً دقيقاً وأمينا إلا أنها لم ترد فى مجال الفخر ، ومن ثم فهي بعيدة عن ميدان بحثنا ، فلم نعرض لها ، لأن البحث كما ذكرت سلفاً مقصور على المظاهر الاجتماعية التى وردت فى ميدان الفخر ، فخر الشاعر بشمائله ومكارمه التى تتصل بالمجتمع ، أو فخره بقبيلته فى الميدان ذاته .

ومـــن خلال هذه المظاهر الاجتماعية التى عرضنا لها لاحظنا أن الشعراء يستمدون مفاخـــرهم مـــن المظاهر البدوية الصادقة دون تكلف للمغالاة ، أو إمعان فى المبالغـــة ، أو جنوح عن المعقول مما جعلها تتسم بالواقعية والمصداقية .

والواقع أننا لن نكون منصفين فى الحكم على عرب الجاهلية إذا ما غضضنا الطرف عن هذا الجانب المشرق فى حياتهم ، والمتمثل فى هذه المظاهر الاجتماعية الحسنة التى عرضنا لهـــا ، نعـــم هناك عادات سيئة تفشت فى ذلك المجتمع ، وهناك جوانب مظلمة سادت فى مجـــتمعهم ، كتلك الآفات الاجتماعية المتمثلة فى الأخذ بالثأر ، ولعب الميسر ووأد البنات ، وغيرها من العادات السيئة ، لكن هذا كله لا يمنع من وجود هذه الجوانب المضيئة فى حياتهم كتلك التى عرضنا لها ، وقد تمسكوا بها وحرصوا عليها ، وتفاخروا من خلالها ، وتغنوا بها فى شعرهم ، وقد عرفناها من خلالـــه ، ولا غرو فى ذلك فالشعر ديوان العرب ، وكما يقولون

---

(١٧٧) ديـوان طـرفة بـن العـبد ص٢٥ ومـا بعـدها ، وشـرح المعلقـات السـبع للزوزنـى ٨٢ ، ٨٣ .

: به حفظت الأنساب وعرفت المآثر .

وآمـــل أن أكـــون قد وفقت فى اختيار الأبيات الشعرية التى تساند فكرتي وتؤيد نظرتي وأن أكون ـــ أيضاً ـــ قد وفقت فى عرض هذه المظاهر الاجتماعية عرضا يجعل بحثي يحظى بالقبول والرضى .

ولعل الدارسين يلتفتون فى شعر الجاهليين إلى نماذج أخرى فى صفات أخرى تكون قد سادت فى ذلك المجتمع ، حتى نقدم الشعر الجاهلي فى ديباجة جديدة ، فمازال فى الشعر الجاهلي كنوز لم يفض ختمها ، وتحتاج إلى دراسة واعية متأنية ، لأنه شعر الجذور التى سمقت فروعه بعد ذلك .

وصلى الله على سيدنا "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم

د. عمر عبد المعبود عبد الرحمن

الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بأسيوط

مصادر البحث ومراجعه

ـ القرآن الكريم .

١ـ الأصمعيات . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، وعبدالسلام هارون ، طبعة دار المعارف ١٩٦٤م .

٢ـ الأعلام للزركلي . دار العلم للملايين . لبنان ط ١٢/١٩٨٧م

٣ـ الأغاني . للأصفهاني . طبعة الدار التونسية . تونس ١٩٨٣ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، وطبعة دار الشعب ١٩٦٩ تحقيق إبراهيم الإبياري .

٤ـ الأمالي والذيل والتنبيه . لأبي علي القالي . ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

٥ـ تاريخ الأدب العربي . د/ عمر فروخ . دار العلم للملايين بيروت ط ٤ / ١٩٨١م .

٦ـ تاريخ الأدب العربي . كارل بروكلمان . دار المعارف بمصر ط ٥/١٩٨٣م .

٧ـ جمهرة الأمثال . أبو هلال العسكري ط١ / ١٩٦٤م ، المؤسسة العربية الحديثة .

٨ـ الحيوان . الجاحظ . طبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ط ٢ / ١٩٦٦م .

٩ـ ديوان الأعشى . تحقيق فوزي عطوى . دار صعب . بيروت ١٩٠٨م .

١٠ـ ديوان الحماسة . شرح التبريزي . دار القلم . بيروت . لبنان .

١١ـ ديوان دريد بن الصمة تحقيق د/ عمر عبد الرسول . دار المعارف بمصر ١٩٨٥م .

١٢ـ ديوان سلامة بن جندل . تحقيق فخر الدين قباوة . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ط٢ / ١٩٨٧م .

١٣ـ ديوان شعر حاتم الطائي . تحقيق د/ عادل سليمان . طبعة الخانجي ٢ / ١٩٩٠م .

١٤ـ ديوان شعر المتلمس الضبعي . تحقيق حسن كامل الصيرفي ١٩٧٠م .

١٥ـ ديوان شعر المثقب العبدي . تحقيق حسن كامل الصيرفي . طبعة معهد المخطوطات العربية ١٩٧١م .

١٦ـ ديوان طرفة بن العبد . شرح مهدي محمد ناصر الدين . دار الكتب العلمية . بيروت ط١ / ١٩٨٧م .

١٧ـ ديوان عامر بن الطفيل . طبعة دار صادر . بيروت ١٩٦٣م .

١٨ــ ديوان عبيد بن الأبرص . تحقيق د/ حسين نصار . طبعة الحلبي ١ / ١٩٥٧م
١٩ــ ديوان عنترة بن شداد . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مكتبة الأسرة ٢٠٠١م .
٢٠ــ ديوان النابغة الذبياني . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف ط٣ / ١٩٩٠م
٢١ــ السيرة النبوية . ابن هشام . طبعة دار الفكر . القاهرة .
٢٢ــ شرح المعلقات السبع . الزوزنى . دار الجيل . بيروت ط٣ / ١٩٧٩م .
٢٣ــ شرح المفضليات . التبريزي . تحقيق على محمد البجاوي دار نهضة مصر . الفجالة
٢٤ــ الشعر الجاهلي . د/ محمد عبد المنعم خفاجي . دار الكتاب اللبناني . بيروت ط٢ / ١٩٧٣م .
٢٥ــ شعر عمرو بن شأس الأسدي . تحقيق د/ يحيى الجبورى . دار القلم الكويت ط٢ / ١٩٨٣م .
٢٦ــ الشعر والشعراء . ابن قتيبة . تحقيق أحمد محمد شاكر ط ٣ / ١٩٧٣ دار التراث العربي للطباعة .
٢٧ــ العصر الجاهلي . د/ شوقي ضيف . دار المعارف ط١٢/ ١٩٨٨م .
٢٨ــ العقد الفريد . ابن عبد ربه . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة .
٢٩ــ العمدة . ابن رشيق . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل . بيروت ط ٥ / ١٩٨١م .
٣٠ــ القاموس المحيط . الفيروز آبادي . نشر دار الجيل بيروت طبعة الحلبي ١٩٥٢م .
٣١ــ الكامل . المبرد . مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦م .
٣٢ــ معجم الشعراء . المرزباني . الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر (٩٣) طبعة ٢٠٠٣م .
٣٣ــ موسوعة الشعر العربي . اختيار وشرح مطاوع صفدي ، وإيلى حاوي . شركة خياط للكتب والنشر . بيروت ١٩٧٠م .
٣٤ــ النقائض . نقائض جرير والفرزدق . تأليف أبو عبيدة البصري . طبعة ليدن ١٩٠٥م
٣٥ــ نهاية الأرب . النويرى . نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية .